الركن الخامس

(حج مبرور ، وسعي مشكور، وذنب مغفور– بإذن الله تعالي)

إعداد

د. عبد الحي الفرماوي

الأستاذ بجامعة الأزهر

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولي

1423هـ – 2003م

رقم الإيداع : 2003/3682

الترقيم الدولي : 8 428 -265 -977

بسم الله الرحمن الرحيم

(ولله علي الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا)

[آل عمران : 97]

مدخل

.

الحج : هو الشعيرة الرابعة في الإسلام ، والركن الخامس من أركانه ، وهو آخر ما فرض من الشعائر والعبادات التي رسم الله حدودها ومعالمها.

إذ كانت فرضيته في السنة التاسعة من الهجرة النبوية على أرجح الأقوال.

والحج : هو تلك الرحلة الفريدة في عالم الأسفار والرحلات . ينتقل المسلم فيها ببدنه وقلبه إلى "البلد الأمين" . الذي أقسم الله به في القرآن . للوقوف بعرفات ، والطواف ببيت الله الحرام ، الذي جعله الإسلام رمزا لتوحيد الله ، ووحدة المؤمنين به ، ففرض على المسلم أن يستقبله كل يوم في صلواته : { وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره } [البقرة :144 ، 150] . ثم فرض عليه أن يتوجه إليه بشخصه ويطوف به بنفسه في العمر مرة واحدة [1].

إن هذا البيت العتيق : هو أول بيت أقيم في الأرض لعبادة الله ، وبانيه هو الخليل إبراهيم وولده الذبيح إسماعيل وهما الرسولان الكريمان اللذان جعل الله من ذريتهما هذه الأمة المسلمة ، واستجاب دعوتهما الخالصة وهما يشيدان هذا البناء العتيد : { وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم (127) ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم (128) ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم } [البقرة : 126 . 129] .

---

[1] - أنظر : الدكتور يوسف القرضاوي ...العبادة في الإسلام ص281-282

إن إبراهيم الخليل قد عرف في التاريخ بأنه عدو الشرك ، ومحطم الأوثان، ورمز التوحيد ، وأبو الملة الحنيفية ، فملته هي الإسلام الخاص ، وهو الذي سمانا المسلمين من قبل ، فلا عجب أن يكون بينه وبين المؤمن من هذه الأمة روابط روحية لا تضعف منها مسافة الزمن الطويل ، روابط تجعلهم دائما ذاكرين لهذا الأب الجليل منقبته وفضله : { ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين (67) إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا } [آل عمران : 67 ـ 68] .

في ظل هذه المعاني والمشاعر والروابط التي تربط المسلمين بالبيت الحرام وبانيه الأول إبراهيم ، فرض الله الحج على كل مستطيع وجعل تركه أو الاستخفاف به كفرا بالله ومروقا من الدين : { إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين (96) فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غني عن العالمين } [آل عمران 96 ، 97] .

*** * ***

وبعد..

أخي المسلم ..

أختي المسلمة ..

أدعو الله تعالى . . . أن يتقبل منا ومنكم صالح الأعمال ، وأن يجعل سعيكم مشكورا ، وحجكم ـ إن شاء الله تعالى ـ مبرورا ، وذنبكم مغفورا.

وهذه مجموعة من النصائح والذكريات والإرشادات والمعلومات أقدمها بين يديك ـ وأنا أحوج إليها منك ـ راجيا من الله تعالى .. أن ينفعني وإياك بها ، وأن يكتب لك ولي أجر الإخلاص فيها ، فهما ، وتنفيذا.

ونلفت النظر : إلى أن ما يحتويه هذا الكتيب ليست مجموعة من الأحكام والآراء الفقهية بقدر ما هي مجموعة من التوجيهات التربوية .

التـي تسـاعدنا فـي الإفـادة مـن هذه الرحلـة الإيمانيـة الجهاديـة إلـى البقـاع الطاهرة ،والأماكن المقدسة ، ومواطن الرحمات.

والتـي تسـاهم فـي تغييـر سـلوكياتنا إلـى الأفضـل ، الـذي يرضـى الله عنهـا ، خـلال هذه الرحلـة ، وبعد الانتهـاء منهـا ، والعودة بسـلامة الله إلـى بلادنـا وبيوتنـا وأهلينا.

والتـي نضـرع إلـى الله عز وجـل .. أن ينفعنـا بهـا فـي الـدنيا وفـي الآخـرة ، خاصة : ونحن نسير إلى رحابه ، ونلوذ بجنابه ، ونطمع في نوال عفوه وغفرانه.

*** * ***

ولنا معك في هذا الكتيب أربعة فصول :

الفصل الأول : مطالب أولية .

الفصل الثاني : ذكريات غالبة .

الفصل الثالث : نتائج مرجوة .

الفصل الرابع : مناسك الحج والعمرة .

فإلى بيانها . بعون الله تعالى . في الصفحات التالية :

*** * ***

الفصل الأول

مطالب أولية

.

- **تمهيد**
- **المطلب الأول : التوبة .**
- **المطلب الثاني : تجديد النية .**
- **المطلب الثالث : الإخلاص.**
- **المطلب الرابع : لزوم الاتباع .**
- **المطلب الخامس : تصفية القلب.**
- **المطلب السادس : التهيؤ للبقاع الطاهرة .**
- **المطلب السابع : معرفة أن الحج رحلة جهادية.**
- **المطلب الثامن : تلمس الحكم والأسرار .**
- **المطلب التاسع : معرفة بعض منافع الحج.**
- **المطلب العاشر : الانتفاع بهذا المؤتمر.**

*** * ***

تمهيد

.

أخي المسلم . . أختي المسلمة . . !!

من الضروري جدا . . على كل واحد منا يريد حج بيت الله الحرام ، وهو يرجو غفران ذنوبه :

- **أن يستخير الله تعالى ، وسنة الاستخارة : صلاة ركعتين يقرأ فيهما سورة الإخلاص بعد فاتحة الكتاب ، ثم يدعو بدعاء الاستخارة المأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم .**
- **وأن يقضي ديونه ، قبل سفره .**
- **وأن يجتهد في أن يكون ماله من حلال ، فإنه لا ثواب للحج بالمال الحرام.**
- **وأن يطمئن على أهله ، وأمورهم ، ونفقاتهم، خلال غيابه عنهم.**
- **وأن يتخذ ـ خلال رحلته ـ رفيقا صالحا ، إن نسى ذكره ، وإن جزع صبره ، وإن عجز أعانه [1].**
- **وأن يهيئ نفسه بهذه الأمور الأولية الهامة ، قبل أن يجهز أمتعته وحاجياته المادية التي يحملها معه خلال هذه الرحلة الإيمانية المباركة .**

وذلك : حتى يستفيد من رحلته هذه على أكمل وجه ، وحتى يكون عمله مقبولا ـ بإذن الله تعالى ـ وسعيه مشكورا ، وذنبه ، إن شاء الله تعالى ـ مغفورا.

---

[1] ـ أنظر : الفقه علي المذاهب الأربعة ..إصدار: وزارة الأوقاف المصرية (الطبعة السابعة) 1396هـ ـ 1976م ، ص653

* * *

المطلب الأول

التوبة

.

على المرء : أن يجلس مع نفسه ، ويختلي بها ، ويحاسبها على ما مضى من الأفعال والأقوال . . فما وجده خيرا حمد الله تعالى عليه ، ورد الفضل في ذلك إلى مولاه ، وتوجه بالشكر إليه ، دون من أو غرور ، وإلا ضاع عمله هباء منثورا ، وما وجده على غير ذلك أنب نفسه عليه ، وعاتبها فيه ، وبدأ في إجراءات التوبة منه ، والبعد عنه .

وهذه هي : المحاسبة ، التي حث عليها سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، حينما قال : " حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزنوا ، وتهيؤا للعرض الأكبر ، ثم تلا قوله تعالى : { يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية } [الحاقة :18] .

وما دام الإنسان يبتغي بحجه هذا مرضاة الله عز وجل ، والتعبد إليه بأداء هذه الفريضة : فليكن خاليا من الذنوب ، طاهرا من المعاصي ، قدر الإمكان ، قبل التوجه إلى رحابه الطاهرة ، وأماكن رضوانه سبحانه المقدسة.

ويكون ذلك بالتوبة الصادقة لله تعالى .

ومن الأمور الموضحة لهذه التوبة المطلوبة منك أخي الكريم ، وأختي المؤمنة :

موقف سيدنا الإمام علي بن أبي طالب رضى الله عنه ، حينما سمع رجلا يقول على وجه العجلة والسرعة ، ودون تركيز : اللهم إني أستغفرك وأتوب إليك".

فقال : يا هذا . . إن سرعة الاستغفار في التوبة ، توبة الكذابين.

فقال الرجل : وما التوبة . . ؟

قال : يجمعها ستة أشياء :

1. على الماضي من الذنوب : الندامة .

2. وللفرائض : الإعادة .

3. ورد المظالم لأهلها .

4. واستحلال الخصوم ، وطلب الصفح منهم .

5. وأن تقلع عن الذنب فورا ، وتعزم صادقا على أن لا تعود.

6. وأن تذيب نفسك في طاعة الله ، كما أذبتها في المعصية ، وأن تذيقها مرارة الطاعة ، كما أذقتها حلاوة المعصية" [1].

وأيضا : هذا الحديث الشريف [2] الذي يرويه سيدنا أبو بكر رضى الله عنه ، حيث يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " مامن عبد يذنب ذنبا ، فيحسن الطهور ، ثم يقوم فيصلي ركعتين ، ثم يستغفر الله : إلا غفر الله له " ثم قرأ هذه الآية : { والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون } [آل عمران : 135] .

واعلم أخي المسلم وأختي المسلمة . . أن ربنا الكريم عظيم حليم ، يقبل التوبة من كل تائب ، بل يفتح باب التوبة لكل تائب مهما كان ذنبه أو معصيته ، طوال حياته ، ما لم يصل إلى غرغرة الموت ، ومفتوح لجميع الناس إلى أن تطلع الشمس من مغربها .

---

[1] - أنظر: سليمان الجمل...الفتوحات الألوهية 369/4 ، 370

[2] - رواه أبو داود ..ك الصلاة - باب الاستغفار

كما أن ربنا عز وجل ، كما في الحديث الشريف : " يبسط بالليل ليتوب مسئ النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسئ الليل ، حتى تطلع الشمس من مغربها " [1].

ومهما تعاظمت الذنوب : يغفرها ، كما في الحديث الشريف : " لو أخطأتم حتى تبلغ خطاياكم السماء ، ثم تبتم : لتاب عليكم ".

أخي الحبيب ، أختي الفاضلة . .

ما دام الأمر كذلك . . فلم لا نتوب توبة صادقة ، من الآن ، وقبل هذه الرحلة.. ؟

نتسامح مع من أخطأ في حقنا ونعفوا عنه ، ونطلب الصفح ممن أخطأنا في حقه ، ونرد الحقوق لأصحابها ، مهما كانت منسية ، صغيرة كانت أو كبيرة.

وكل إنسان أدرى بحاله ، ويعلم حجم ذنوبه وخطاياه ، ومدى حاجته إلى التوبة ، وعفو الله تعالى .

ولا ينبغي أن يظن واحد أنه الوحيد المذنب ، حتى لا يصاب باليأس . والعياذ بالله . من رحمة الله ، بل . كما يقول الحبيب صلى الله عليه وسلم: " كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون " .

وأخيرا . . لا ينبغي أن تكون هذه التوبة لظروف أداء فريضة الحج إلى بيت الله فقط ، حتى إذا ما عاد بسلامة الله : أهمل التوبة ، وتراخى فيها ، وظن أنه خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ، فلا يحتاج إلى توبة بعد ذلك . .!!

لا . . لا . . بل التوبة في كل حال ، وإلا صدق عليه قول الشاعر الحكيم:

إذا مرضنا نوينا كل صالحة فإن شفينا فمنا الزيغ والزلل

نرجو الإله إذا خفنا 00 ونسخطه إذا أمنا.. فما يزكو لنا عمل

لهذا يجب الانتباه واليقظة الشديدة لهذا الموضوع .

* * *

[1] - رواه مسلم كتاب التوبة،باب قبول التوبة من الذنوب

المطلب الثاني

تجديد النية

.

على الإنسان : أن يراجع الإنسان نيته في هذا العمل ، ويسائل نفسه : لم يشترك في هذه الرحلة الشاقة ؟ وماذا يريد من ورائها ؟ وماذا يرجو بسببها؟

فإن وجد خيرا : حمد الله تعالى ، ورد الفضل إليه سبحانه .

وإن وجد غير ذلك : جدد نيته في هذه العبادة ، وصحح رغبته ، وحدد مسيرته ، وبين لنفسه أنه ينبغي من ورائها رضوان الله فقط ، وإلا ضاعت عليه جهوده التي سيبذلها ، وأمواله التي سينفقها .

وما ذلك : إلا لأن الأعمال بالنيات ، كما في الحديث الشريف : " إنما الأعمال بالنيا ، وإنما لكل امرئ ما نوى . . فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله : فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها : فهجرته إلى ما هاجر إليه " [1].

ولذلك : ينبغي على العاقل أن ينوي بهذه الرحلة طاعة الله تعالى ، وطلب عفوه وغفرانه ورضوانه فقط ، ثم عليه أن يجدد هذه النية في كل فترة ، ومع كل عمل ، وفي كل مكان ينزل فيه ويحط رحاله ، وفي كل وقت يمر به.

وعليه أيضا : أن يؤكد ذلك . . بالاستغفار إلى الله تعالى ، والذكر الذي يعطر به لسانه ، وينور به بصره ، ويطمئن به فؤاده ، يقول سبحانه : { ألا بذكر الله تطمئن القلوب } [الرعد : 28].

وسيد الاستغفار ، الذي يساعد على تجديد النية ، واستحضارها دائما . أن يقول الإنسان : " اللهم أنت ربي ، لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك علي ، وأبوء بذنبي . . فاغفر لي ، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت" .

---

[1] - البخاري ..كتاب بدء الوحي باب كيف كان بدء الوحي.

ومن صيغ الاستغفار الحسنة ، التي تساعد أيضا على استصحاب النية .. ما ورد عن بعض الصالحين ، حيث يقول : " اللهم إني أسألك وأستغفرك من كل ذنب تبت إليك منه : ثم عدت فيه .

وأستغفرك من كل ما وعدتك به من نفسي : ثم لم أف لك به .

وأستغفرك من كل عمل أردت به وجهك : فخالطه غيرك.

وأستغفرك من كل نعمة أنعمت بها على : فاستعنت بها على معصيتك"[1]

وما كل ذلك .. إلا لتظل النية بهذا العمل متوجهة إلى طاعة الله تعالى ، خالصة في ذلك ، رجاء رضوانه تبارك وتعالى .

* * *

المطلب الثالث

الإخلاص

.

أن يخلص الإنسان قصده ونيته بهذا العمل وجه الله تعالى وحده ، والتقرب به إلى الله سبحانه دون أي شئ آخر، من تصنع لمخلوق ، أو اكتساب محمدة عند الناس ، أو محبة مدح من الخلق، أو شهرة بينهم ، أو وجاهة فيهم ، أو أي معنى من المعاني سوى التقرب إلى الله تعالى .

حيث يقول تعالى : { ألا لله الدين الخالص } [الزمر : 3] .

ويقول تعالى : { فاعبد الله مخلصا له الدين } [الزمر : 2] .

ومن هنا : ينبغي أن يكون كل عمل المسلم خالصا لوجه الله تعالى وحده: {قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين (162) لا شريك له وبذلك أمرت } [الأنعام :162 ، 163] .

وليعلم المسلم جيدا : أنه بدون هذا الإخلاص لن يقبل منه أي عمل ، وستضيع عليه جهوده فيه .

---

[1] - الأبشهى..المستطرف290/2

حيث إن الإخلاص لله تعالى في أي عمل شرط ضروري لقبوله عند الله تعالى ، يقول ربنا عز وجل : { ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى } [لقمان : 22] .

وهذه الآية .. تشير إلى أمرين :

الأول : الإخلاص لله تعالى ، والتسليم الكامل له سبحانه .

الثاني : الإحسان في العمل بموافقته شرع الله تعالى ، وحسن الاتباع والالتزام فيه بضوابط الشرع .

وحول الأمر الأول . . يدور حديث النبي صلى الله عليه وسلم : " إن الله لا يقبل من العمل : إلا ما كان خالصا له ، وابتغى به وجهه " [1].

وحول الأمر الثاني : يكون الحديث في المطلب التالي :

* * *

المطلب الرابع

لزوم الإتباع

.

أي : عدم المخالفة ، لشرع الله تعالى ، أو التعديل له ، أو الانتقاص منه ، أو الإهمال له .

حيث يقول الحبيب صلى الله عليه وسلم : " من عمل عملا ليس عليه أمرنا : فهو رد " [2] أي مردود على صاحبه ، غير مقبول منه .

لأن هذا الدين كامل .. لا يحتاج إلى إضافة : { اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا } [المائدة : 3].

كما أن الاتباع فيه واجب : { قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم } [آل عمران : 31] .

ولذلك .. فإن الالتزام بما جاء في كتاب الله تعالى، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم : فريضة ، وهو الدين ، كما أن الخروج عليهما أو على واحد

---

[1] - النسائي في السنن..كتاب الجهاد، باب من غزايلتمس الأجر والذكر.

[2] - رواه : مسلم في صحيحه ، وأحمد في المسند.

منهما إنكارا : خروج على الدين ، فإن كان إهمالا دون إنكار : كان معصية وإثما كبيرا ، يجب العدول عنه ، والتوبة منه .

وهذا في كل الأمور . . ومنها أمور الحج ومناسكه .

ولاحظ أيها المؤمن جيدا : أنه .. من قوله تعالى : { ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى } [لقمان :22].

ومن قول النبي صلى الله عليه وسلم : " إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا له وابتغى به وجهه " [1]

ومن قوله صلى الله عليه وسلم : " من عمل عملا ليس عليه أمرنا : فهو رد" .

يصبح واضحا [2].

أن قبول الأعمال التي يؤديها الإنسان ، وصيرورتها في ميزان حسناته ، مرهون بأمرين :

أولهما : صحة الباطن ، وذلك يكون بإخلاص القصد وتصحيح النية .

وثانيهما : صحة الظاهر ، وذلك يكون بموافقة العمل لشرع الله سبحانه وتعالى .

ولابد من توافر الأمرين معا.

بمعنى أنه : لو توافرت النية ، وصح القصد ، دون تعديل للسلوك ، وتصحيح للظاهر ، وموافقة للكتاب والسنة فيما يأتي وما يدع ؛ فإخلاصه : مزيف ، ونيته : صناعة العجزة والكسالى ، ولن ينجيه من التقصير إخلاصه هذا ، ولن ترفع هذه النية الواهية منزلته .

وذلك : لأن المفروض أن تؤثر صحة الباطن في غسل أدران الظاهر ، وتصحيح سلوكه ، وتقويم إعوجاجه ، بل أن يتحرك هذا الظاهر إلى الهيمنة وقوة التأثير لكي يعم الخير وينتشر النور ، وتؤدي الرسالة على الوجه الأكمل

---

[1] - النسائي.. كتاب الجهاد، باب من غزايلتمس الأجر والذكر.

[2] - المؤلف ..موسوعة التفسير الموضوعي ص91/1 -93

الذي كلفنا الله تعالى به في قوله عز وجل : { وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس } [البقرة : 143] .

كما أنه : لو توافرت صحة الظاهر ، حتى ولو بموافقة العمل لشرع الله تعالى، دون صحة الباطن ، من تصحيح النية ، وإخلاص القصد ، فإن هذا الظاهر حتى وإن رفع صاحبه في الدنيا ، وحقق له مآربه ، لا يعد في ميزان حسناته ، إذ العبرة بالنية والقصد : " إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى " [1].

وهؤلاء وإن كانت أعمالهم لا تضيع نتائجها عليهم في الدنيا بموجب قوله تعالى : { من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد } [الإسراء :18] ، بل يوفيها الله تعالى ـ بعدله ـ لهم ، دون بخس أو نقصان : { من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون} [هود :15] .

إلا أن هذه الأعمال في ميزان القبول عند الله تعالى : مردودة عليهم ، حتى وإن وافقت الكتاب والسنة ، وذلك بسبب أنهم ما قصدوا بها أصلا وجه الله ، وما اتجهت نيتهم بها لطاعته.

يقول تعالى : { وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا } [الفرقان : 23].

وخاسرون فيها كذلك : حتى وإن ظنوا أنهم كانوا يحسنون فيها صنعا ، يقول سبحانه : { قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا (103) الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا (104) أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا } [الكهف :103 ـ 105]

نعم .. ضل سعيهم ، وخاب أملهم : لأنهم ما أخلصوا لله تعالى في هذه الأعمال ، بل ما قصدوا وجه الله تعالى في هذه الأعمال ، بل ما آمنوا بالله تعالى أصلا خلال هذه الأعمال .

---

[1] ـ رواه البخاري، كتاب : بدء الوحي ، باب : كيف كان بدء الوحي.

* * *

المطلب الخامس

تصفية القلب من الأحقاد والضغائن

.

" عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما ، قال : قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم.. أي الناس أفضل . . ؟

قال : كل مخموم القلب ، صدوق اللسان .

قالوا : صدوق اللسان .. نعرفه ،، فما مخموم القلب .. ؟

قال : هو التقي النقي . . لا إثم فيه ، ولا بغي ، ولا غل ، ولا حسد" [1].

وبناء على هذا الحديث الشريف : ينبغي أن تدرب نفسك الآن على أن تكون تقيا نقيا ، لا إثم في قلبك ، ولا بغي على أحد في نيتك ، ولا غل لأحد في صدرك ، ولا حسد لصاحب نعمة عندك .

وأنا أعرف بالتجربة أن هذه التصفية للقلب : ليست سهلة ، ولكن أنت في ذات الوقت تطلب أمرا ليس بالهين الذي لا يستحق بذل الجهد ، وهو مرضاة الله تبارك وتعالى ، كما أنك سوف تتكبد المشاق البدنية ، وتنفق الأموال الكثيرة في هذه الرحلة . أيضا . رجاء نوال مرضاة الله عز وجل .

فهل من المعقول أن تبذل هذه الجهود ، وتنفق هذه الأموال ، وتترك أهلك وولدك وعملك : ثم تعود دون تحقيق الهدف ، ونوال الرضوان ؛ لأن قلبك غير صاف للناس ، وغير خال من الأحقاد والعداوات والضغائن والحسد لهذا وذاك..؟

ولاحظ : أن الشيطان ، والنفس الأمارة بالسوء ، والهوى . . لن يتركك واحد من هؤلاء تتم عملية التصفية للقلب هذه دون تدخل منه ، أو منهم مجتمعون ، يصدونك عنها ، ويزينون لك ما أنت فيه ، وقد يقول لك هذا أو ذاك منهم :

---

[1] - رواه ابن ماجة، كتاب الزهد،باب الدرع والتقوى، وفي الزوائد: هذا إسناد صحيح، ورجاله ثقات.

أنت أحسن حالا من غيرك ، أو أنت لا تملك نوازع قلبك ولا دخل لك في ذلك .. إلى غير هذه الخواطر التي تحول بينك وبين النجاح في تصفية القلب.

ولذلك : انتبه جيدا إليها ، ولا تتأثر بها ، وكن مع الشاعر الحكيم في قوله :

إني بليت بأربع يرمينني بالنبل عن قوس لها توتير

إبليس والدنيا ونفسي والهوى يا رب أنت على الخلاص قدير

وعلى ذلك : فكلما نزعت نفسك إلى شئ من هذه الأمور السيئة ، التي تسكن القلب ، وتحول بينه وبين رضوان الله سبحانه ، أو نزغ الشيطان بسمومه في صدرك . . فعالج نفسك بما يفهم من قوله تعالى { ونفس وما سواها (7) فألهمها فجورها وتقواها (8) قد أفلح من زكاها (9) وقد خاب من دساها } [الشمس : 7 : 10]

وأطرد الشيطان عنك عملا بقوله تعالى { وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم } [فصلت : 36].

* * *

المطلب السادس

التهيؤ للبقاع الطاهرة

.

عليك . . ضرورة العلمك . قبل السفر . بأنك ذاهب إلى بقاع طاهرة ، بها مهبط الوحي من السماء ، ومنبع الرسالة ، وبها مكة والمدينة اللتين هما أشرف بلاد الله .

أما مكة المكرمة ففضلها معروف منذ العصور الأولى في التاريخ ، من لدن آدم عليه السلام ، وبالأخص بعد أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام ، حيث بنى الكعبة . بيت الله . فيها ، وأذن في الناس بالحج فأتوا مكة من كل فج عميق. .

وإن من ينظر في أشهر الحج إلى مكة يأتيها الناس أفواجا أفواجا يوميا ، ليلا ونهارا ، وقد علت أصواتهم بالدعاء والتضرع حين دخولهم إليها ، بل في

كل نواحيها وشوارعها ، وهم محرمون : آمن بعظمة الله تعالى ، وعرف فضل مكة على سائر البلدان ، خاصة وأن هذا الحال لا توجد في جميع أنحاء المعمورة سوى مكة ، وفي كل عام . . إلى قيام الساعة .

بل لا ينقطع الطواف حول بيت الله لحظة من ليل أو نهار ، ولذلك : يقول العلماء [1] إن مكة تمتاز على سائر البلدان . إلى جانب ما ذكرنا . بعدة أشياء منها :

1. إنها مهبط الوحي ، ومركز نزول القرآن ، وابتداء ظهور الإسلام .
2. أن القادم إليها يجب عليه التجرد من ثيابه ، ودخولها بنية الإحرام بحج أو عمرة .
3. أنه ليس فيها إلا دين واحد ، وهو الإسلام ، فليس فيها دينان ، ولا يدخلها غير مسلم .
4. أنها بلد تضاعف فيها الحسنات ، وبالأخص الصلوات ، ففي الحديث الشريف "صلاة في مسجدي هذا : أفضل من ألف صلاة في غيره من المساجد إلا المسجد الحرام . . والصلاة في المسجد الحرام : أفضل من الصلاة في مسجدي هذا بمائة ألف صلاة" .
5. أنه يبعث من مقبرتها سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ، يشفع كل واحد منهم في سبعين ألفا ، وجوههم كالقمر ليلة البدر.
6. أن الدجال سيطأ جميع البلدان . حين خروجه آخر الزمان . إلا مكة والمدينة وبيت المقدس.
7. أنه ما من نبي من الأنبياء كذبه قومه . . إلا وخرج إلى مكة ، يعبد الله حتى يأتيه اليقين .

ولذلك :

فحول الكعبة : قبر ثلاثمائة نبي من أنبياء الله . وما بين الركن اليماني وركن الحجر الأسود : قبر سبعين نبيا وقبر إسماعيل عليه السلام ، وأمه هاجر : في الحجر ، تحت "الميزاب".

---

[1] - محمد طاهر الكردي ..كتاب التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم 307/1

وما بين زمزم ومقام إبراهيم عليه السلام : قبر نوح ، وهود وشعيب وصالح ، عليهم جميعا صلوات الله وسلامه.

8. وأن أهل مكة : يتجهون في صلاتهم إلى الكعبة من جميع الجهات الأربعة ، بخلاف أهل بلدان العالم كله . . إذ كل بلدة يتجه أهلها إلى الكعبة من جهة واحدة.

ولذلك . . فما أبهج منظر المسجد الحرام ، حين الصلاة ، حيث يصلي الجميع حول الكعبة من جميع الجهات على إتساعه .

ولا يوجد منظر يأخذ بمجامع القلوب ، ويشرح الصدور، ويذهب الهم والغم ، ويجلب السرور . . كالصلاة في المسجد الحرام ، والجلوس حول الكعبة المشرفة.

9. وكفى أنها : بلد الله ، وبلد رسوله صلى الله عليه وسلم ، وبلد أصحابه المهاجرين الكرام ، ومأوى الأنبياء والمرسلين والأتقياء والصالحين ، وقبلة جميع المؤمنين .

وقد ذكرت في القرآن الكريم في آيات عديدة ، لا يتسع المقام لذكرها .

ويقول الحسن البصري : ما أعلم اليوم على وجه الأرض بلدة ترفع فيها من الحسنات وأنواع البر ، كل واحدة منها بمائة ألف سوى مكة بلد الله الحرام . . وما أعلم أنه ينزل في الدنيا كل يوم رائحة الجنة وروحها ما ينزل بمكة .

10. وفيها الحجر الأسود :

ويقال له " الركن" باعتبار أنه موضوع في الركن الأهم من البيت الحرام ، وهو الركن الذي يبتدئ الطواف منه ، وهو الركن الشرقي ، وأمره يرجع إلى عهد إبراهيم الخليل ، عليه الصلاة والسلام ، فإنه لما كان يبني البيت المعظم وابنه إسماعيل ينقل له الحجارة على رقبته ويناوله ووصل إلى موضع الركن الأسود . قال إبراهيم لإسماعيل : أبغني حجرا أضعه ها هنا يكون للناس علما يبتدؤن منه الطواف ، فذهب إسماعيل يطلب حجرا ورجع وقد جاءه جبريل بالحجر الأسود ، وكان الله عز وجل استودع الركن أبا قبيس حين أغرق الله الأرض زمن نوح ، وقال إذا رأيت خليلي يبني بيتي فأخرجه له ، فقال إسماعيل

يا أبي من أين لك هذا ؟ قال : جاءني به من لم يكلني إلى حجرك جاء به جبريل ، فلما وضع جبريل الحجر في مكانه بنى عليه وهو حينئذ يتلألأ تلألؤا من شدة بياضه ، فأضاء نوره شرقا وغربا ، ويمنا وشاما ، فكان نوره يضئ إلى منتهى أنصاب الحرم من كل ناحية من نواحي الحرم .

ولقد ورد في نزول الركن من الجنة بعض أحاديث نسردها هنا وهي :

روى الترمذي وأحمد والحاكم وابن حبان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إن الركن والمقام ياقوتتان من ياقوت الجنة طمس الله تعالى نورهما ولو لم يطمس نورهما لاضاءتا ما بين المشرق والمغرب".

وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك والنساء عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " الحجر الأسود من الجنة" .

وروى أحمد وغيره : "الحجر الأسود من الجنة وكان أشد بياضا من الثلج حتى سودته خطايا أهل الشرك "

وروى الطبراني في معجمه الكبير عن ابن عباس "الحجر الأسود من حجارة الجنة وما في الأرض من الجنة غيره وكان أبيض كالماء ولولا ما مسه من رجس الجاهلية ما مسه ذو عاهة إلا برئ " .

وروى ابن خزيمة في صحيحه عن ابن عباس "الحجر الأسود ياقوتة بيضاء من ياقوت الجنة وإنما سودته خطايا المشركين يبعث يوم القيامة مثل أحد يشهد لمن استلمه وقبله من أهل الدنيا" .

وجاء في تاريخ الأزرقي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله عز وجل يبعث الركن الأسود له عينان يبصر بهما ولسان ينطق به يشهد لمن استلمه بحق. "

وجاء فيه أيضا : عن عبد الملك بن جريح عن أبيه إنه قال : كان سلمان الفارسي قاعدا بين الركن وزمزم والناس يزدحمون على الركن فقال لجلسائه : هل تدرون ما هو ؟ قالوا هذا الحجر ، قال قد أرى . . ولكنه من حجارة الجنة

أما والذي نفس سلمان بيده ليجيئن يوم القيامة له عينان ولسان وشفتان يشهد لمن استلمه بالحق [1].

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : في قوله تعالى { فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم } [إبراهيم : 37] لو أن إبراهيم عليه السلام قال في هذا الدعاء "فاجعل أفئدة الناس تهوي إليهم" لإزدحمت عليه اليهود والنصارى ، ولكنه خص حين قال (أفئدة من الناس) فكان ذلك للمؤمنين فقط ، ولله الحمد والمنة .

وأما المدينة . . على ساكنها أفضل الصلاة وأزكى السلام : فهى التي هاجر إليها الحبيب صلى الله عليه وسلم ، ومنها قامت الدولة الإسلامية ، وفي ربوعها نزل القرآن ، وعلى ترابها نشأ رجال الدعوة الذين حملوها في صدورهم ونشروها في العالمين وكانت موضع إقامة النبي صلى الله عليه وسلم ، وإقامة أصحابه الكرام رضى الله عنهم. وإزدادت شرفا بموت رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها ، ودفنه بتربتها.

كما دفن فيها بعض أولاد النبي صلى الله عليه وسلم ، وأكثر زوجاته.

وكذلك : دفن فيها كبار الصحابة الأطهار رضى الله عنهم وفيها يقول الحبيب صلى الله عليه وسلم : " إن الإيمان ليأزر إلى المدينة . أي يأوى فيها ويقيم بها كما تأزر الحية إلى جحرها" [2].

كما يقول صلى الله عليه وسلم " ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة " [3].

إلى غير ذلك من الفضائل التي تخصها .

* * *

أخي المسلم ، وأختي المسلمة . . !!

---

1 - أنظر: محمد طاهر الكردي .. كتاب التاريخ القويم ..ص294 وما بعدها باختصار

2 - البخاري ..كتاب المدينة، مسلم ..كتاب الإيمان ، الترمذي ..كتاب الإيمان ، ابن ماجة المناسك ، أحمد في المسند.

3 - البخاري ..كتاب الرقاق، باب في الحوض..إلخ.

بعد أن عرفت ذلك . . أعتقد أن عليك أن تهيئ نفسك لتلقي فضل الله وكرمه في هذه الرحاب الطاهرة ، إضافة إلى البقاع المقدسة ، كعرفات ومنى، ومزدلفة . . . الخ

وذلك : بكف اللسان عن الخطأ في القول ، والفحش في الكلام ، والغيبة ، والنميمة . . وكذلك : غض البصر عما حرم الله ، وضبط النفس من الانفعالات الخارجة عن حدود الشرع ، وعدم سوء الظن بالآخرين ، والتحرز من الحرام ، وتحري الحلال ، في كل شئ بصفة عامة .

وإذا كان هذا واجب المراعاة من المسلم دائما ، فهو في هذه الظروف يحتاج إلى مراعاة أشد وأدق ، حتى يتقبل منا ، ويعفو عنا ، ويغفر لنا .

*** * ***

المطلب السابع

معرفة أن الحج رحلة جهادية تربوية تغييرية

-

أ . حيث إنه في الحج : توسيع لأفق المسلم الثقافي ، ووصل له بالعالم الكبير من حوله [1]، وقد قالوا : السفر نصف العلم . وفي الأمثال السائرة أن حكيما قال : من يعش يرى كثيرا ، فقال آخر : لكن من يسافر يرى أكثر.

وفي هذا السفر للحج : تدريب على ركوب المشقات ، ومفارقة الأهل والوطن ، والتضحية بالراحة والداعة في الحياة الرتيبة بين الآل والصحاب ، ولم تشأ حكمة الله أن تجعل هذه الرحلة إلى بلد مثل "سويسرا" أو "لبنان" أو غيرهما من البلاد الجميلة التي يتخذها الناس مصيفا أو مشتى. ولكن شاء الله أن يكون الحج إلى واد غير ذي زرع لا يصلح مصيفا ولا مشتى ، وذلك تربية للمسلم على احتمال الشدائد ، والصبر على المكاره ، ومواجهة الحياة كما فطرها الله بأزهارها وأشواكها ، بشهدها وصابها. بحرها وقرها . فهو يلتقي مع الصوم في إعداد المسلم للجهاد.

---

[1] - د.يوسف القرضاوي – العبادة في الإسلام ص287-292

وحياة الحاج أشبه بحياة الكشاف في بساطتها وخشونتها ، حياة تنقل وارتحال ، واعتماد على النفس ، وبعد عن الترف والتكلف والتعقيد ، الذي يناسب حياة الخيام في منى وعرفات.

وقد تجلت هذه الحكمة حين جعل الله الحج دائرا مع السنة القمرية ، فأشهر الحج المعلومات تبدأ بشهر شوال ، وتنتهي بذي الحجة ، وهي أشهر . كما نعلم . تأتي أحيانا في وقدة الصيف وأحيانا في زمهرير الشتاء ، ليكون المسلم على إستعداد لتحمل كل الأجواء والاصطبار على كل ألوان الصعوبات.

ب . كما أنه في الحج شحنة روحية كبيرة ، يتزود بها المسلم ، فتملأ جوانحه خشية وتقى لله ، وعزما على طاعته ، وندما على معصيته ، وتغذي فيه عاطفة الحب لله ولرسول الله ، ولمن عزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه ، وتوقظ فيه مشاعر الأخوة لأبناء دينه في كل مكان ؛ وتوقد في صدره شعلة الحماسة لدينه ، والغيرة على حرماته.

إن الأرض المقدسة وما لها من ذكريات ، وشعائر الحج وما لها من أثر في النفس ، وقوة الجماعة وما لها من إيحاء في الفكر والسلوك . . كل هذا يترك أثره واضحا في أعماق المسلم ، فيعود من رحلته أصفى قلبا ، وأطهر مسلكا ، وأقوى عزيمة على الخير ، وأصلب عودا أمام مغريات الشر . . وكلما كان حجه مرورا خالصا لله كان أثره في حياته المستقبلة يقينا لا ريب فيه ، فإن هذه الشحنة الروحية العاطفية ، تهز كيانه المعنوي هزا ، بل تنشئه خلقا آخرا ، وتعيده كأنما هو مولود جديد يستقبل الحياة وكله طهر ونقاء ، ومن هنا قال الرسول صلى الله عليه وسلم : " من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه"[1]

ج . والحج تدريب عملي للمسلم على المبادئ الإنسانية العليا التي جاء بها الإسلام ، فقد أراد الإسلام ألا تكون مبادئه وقيمه الاجتماعية مجرد شعارات أو نداءات ، بل ربطها بعباداته ، وشعائره ربطا وثيقا ، حتى تخط مجراها في عقل المسلم وقلبه فهما وشعورا ، ثم تخط مجراها في حياته سلوكا وتطبيقا.

وقد رأينا في صلاة الجماعة كيف تنمي معاني الأخوة والمساواة والحرية.

---

[1] - رواه البخاري وأحمد والنسائي

وهنا في الحج نرى معنى المساواة في أجلى صورة وأتمها ، فالجميع قد أطرحوا الملابس والأزياء المزخرفة التي تختلف باختلاف الأقطار ، واختلاف الطبقات ، واختلاف القدرات ، واختلاف الأذواق ، ولبسوا جميعا ذلك اللباس البسيط . الذي هو أشبه ما يكون بأكفان الموتى . يلبسه الملك والأمير ، كما يلبسه المسكين والفقير ، وإنهم ليطوفون بالبيت جميعا فلا تفرق بين من يملك القناطير المقنطرة ، ومن لا يملك قوت يومه ، ويقفون في عرفات ألوفا ألوفا ، فلا تحس بفقر فقير ، ولا غنى غني ، ولا تحس حين تراهم في ثيابهم البيض وفي موقفهم المزدحم العظيم إلا أنهم أشبه بالناس في ساحة العرض الأكبر ، يوم يخرجون من الأجداث إلى ربهم ينسلون .

ولقد كانت قريش في الجاهلية ترى لنفسها فضلا على سائر العرب ، فتترفع عن الوقوف معهم في عرفات وتقف في مزدلفة ، فأبطل الإسلام هذه العادة ، وقال تعالى بعد أن ذكر بعض أعمال الحج { ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس} [البقرة :199] كأنه يقول : " بعد ما تبين لكم ما تقدم كله من أعمال الحج ، وليس فيها امتياز أحد على أحد ، ولا قبيل على قبيل ، وعلمتم أن المساواة وترك التفاخر من مقاصد هذه العبادة بقى شئ آخر . وهو أن تلك العادة المميزة لا وجه لها ، فعليكم أن تفيضوا مع الناس من مكان واحد" [1].

ولما كانوا في الجاهلية يتخذون من موسم الحج مجالا للتفاخر بالأنساب والآباء ، وقف النبي يخطبهم في أواسط أيام التشريق ويعلنهم بمبدأ الإسلام العالمي : " يا أيها الناس ، إن ربكم واحد وإن آباكم واحد ألا لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا لأحمر على أسود ، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى . . أبلغت : قالوا : بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم " [2].

د . وفي الحج نرى معنى الوحدة جليا كالشمس : وحدة المشاعر ، ووحدة في الشعائر ، ووحدة في الهدف ، ووحدة في العمل ، ووحدة في القول . . لا إقليمية ولا عنصرية ، ولا عصبية للون أو جنس أو طبقة ، إنما هم جميعا

---

[1] - من تفسير الآية في المنار.
[2] - رواه أحمد.

مسلمون ، برب واحد يؤمنون ، وببيت واحد يطوفون ، ولكتاب واحد يقرأون ، ولرسول واحد يتبعون ، ولأعمال واحدة يؤدون ، فأي وحدة أعمق من هذه وأبعد غورا ؟ [1].

هـ . ومن المبادئ التي سبق الإسلام بالدعوة إليها : السلام.

والحج طريقة فذة لتدريب المسلم على السلام ، وإشرابه روح السلام ، فهو رحلة سلام إلى أرض سلام ، في زمن سلام .

أرض الحج هي البلد الحرام والبيت الحرام الذي جعله الله مثابة للناس وأمنا { ومن دخله كان آمنا } [آل عمران :97] والذي قال فيه عمر : لو وجدت فيه قاتل أبي ما مسته يدي.

إنها منطقة أمان فريد في نوعه ، شمل الطير في الجو ، والصيد في البر ، والنبات في الأرض ، فهذه المنطقة لا يصاد صيدها ولا يروع طيرها ولا حيوانها ، ولا يقطع شجرها ولا حشائشها !!

ومعظم أعمال الحج : يقع في شهرين (ذي القعدة وذي الحجة) من الأشهر الحرم ، التي جعلها الله هدنة إجبارية تغمد فيها السيوف ، وتحقن فيها الدماء ، ويوقف القتال { جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس والشهر الحرام } [المائدة : 97].

والمسلم حين يحرم بالحج : يظل فترة إحرامه في سلام حقيقي ، مع من حوله وما حوله ، فلا يجوز له أن يقطع نباتا أو يعضد شجرة ، كما لا يجوز له أن يذبح حيوانا صاده غيره له ، أو يرمي هو صيدا في الحرم ، أو خارجه قال تعالى : { يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم } [المائدة : 95] ، { يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم [المائدة : 96].

بل لا يجوز للمحرم أن يحلق شعر نفسه أو يقص ظفره ، حتى يتحلل من إحرامه فيقص ويحلق أو يقصر.

فهل رأت الدنيا تطبيقا عمليا للسلام وتدريبا عليه كهذا الذي صنعه الإسلام في رحلة الحج : رحلة السلام إلى أرض السلام ، في زمن السلام ؟ ! (24).

---

[1] - د. يوسف القرضاوي..مصدر سابق.

* * *

المطلب الثامن

تلمس الحكم والأسرار

-

على المسلم : تلمس الحكم والأسرار . قدر الإمكان في مناسك الحج . حيث إنه علينا أن نفهم كثيرا من أسرار مناسك الحج وأعماله .

" فما الإحرام في حقيقته : وهو أول المناسك ، إلا التجرد من شهوات النفس والهوى ، وحبسها عن كل ما سوى الله ، وعلى التفكير في جلاله.

وما التلبية : إلا شهادة على النفس بهذا التجرد ، وبالتزام الطاعة والامتثال.

وما الطواف بعد التجرد : إلا دوران القلب حول قدسية الله ، صنع المحب الهائم مع المحبوب المنعم ، الذي ترى نعمه ، ولا تدرك ذاته .

وما السعي بعد هذا الطواف : إلا التردد بين علمي الرحمة التماسا للمغفرة والرضوان .

وما الوقوف بعد السعي : إلا بذل المهج في الضراعة بقلوب مملوءة بالخشية ، وأيد مرفوعة بالرجاء ، وألسنة مشغولة بالدعاء ، وآمال صادقة في أرحم الراحمين.

وما الرمي بعد هذه الخطوات التي تشرق بها على القلوب أنوار ربها :

المطلب الثامن

تلمس الحكم والأسرار

-

على المسلم : تلمس الحكم والأسرار . قدر الإمكان في مناسك الحج . حيث إنه علينا أن نفهم كثيرا من أسرار مناسك الحج وأعماله .

" فما الإحرام في حقيقته : وهو أول المناسك ، إلا التجرد من شهوات النفس والهوى ، وحبسها عن كل ما سوى الله ، وعلى التفكير في جلاله.

ومـا التلبيـة : إلا شـهادة علـى الـنفس بهـذا التجـرد ، وبـالتزام الطاعـة والامتثال.

وما الطواف بعد التجرد : إلا دوران القلب حول قدسية الله ، صنع المحب الهائم مع المحبوب المنعم ، الذي ترى نعمه ، ولا تدرك ذاته .

وما السعي بعد هذا الطواف : إلا التردد بين علمي الرحمة التماسا للمغفرة والرضوان .

ومـا الوقـوف بعـد السـعي : إلا بـذل المهـج فـي الضـراعة بقلـوب مملـوءة بالخشـية ، وأيـد مرفوعـة بالرجـاء ، وألسـنة مشـغولة بالـدعاء ، وآمـال صـادقة فـي أرحم الراحمين.

وما الرمي بعد هذه الخطوات التـي تشرق بهـا علـى القلـوب أنـوار ربهـا : إلا رمز مقت واحتقار لعوامل الشر ، ونزغات النفس ، وإلا رمز مادي لصدق العزيمة في طرد الهوى المفسد للأفراد والجماعات.

وما الذبح ، وهو الخاتمة في درج الترقي إلى مكانة الطهر والصفاء : إلا إراقة دم الرذيلة بيد اشتد ساعدها في بناء الفضيلة ، ورمز للتضحية والفداء على مشهد من جند الله الأطهار الأبرار" [1].

واعلم أخي المسلم أنه لا ضير على الإسلام أن يبقى الصالح من تقاليد العرب وشرائعهم التي ورثوها من دين إبراهيم . وهو بهذا يصل بين القديم والجديد في تاريخ الإيمان ، ويقرر وحدة الدين عند الله .

يقول صاحب مجلة "الشهاب" [2] رحمه الله :

" وينتهز بعض الذين لا يعلمون الحكمة البالغة ، والنظرة السامية في هذا التشريع الحكيم ـ هذه الفرصة ، فيغمزون الإسلام بأنه لا زال متأثرا ببقية من وثنية العرب ، وأن الكعبة والطواف من حولها ، والحجر الأسود واستلامه ، وما يحيط بذلك من معاني التقديس والتكريم ، إن هو إلا مظهر من مظاهر هذا التأثر.

---

[1] ـ د.القرضاوي- العبادة في الإسلام ص284-286 (بتصرف).

[2] ـ العدد الثالث ص51 من مقال للشهيد حسن البنا.

وهذا القول بعيد عن الصحة ، عار عن الصواب ، فالمسلم الذي يطوف بالكعبة أو يستلم الحجر ، يعتقد اعتقادا جازما أنها جميعا أحجارا لا تضر ولا تنفع ، ولكنه إنما يقدس فيها هذا المعنى الرمزي البديع ، معنى الإخوة الإنسانية الشاملة،والوحدة العالمية الجامعة ، ويذكر في ذلك قول الله العلي الكبير : { جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس} [المائدة : 97].

"والرمزية هي اللغة الوحيدة لتمثيل المعاني الدقيقة ، والمشاعر النبيلة ، التي لا يمكن أن تصورها الألفاظ ، أو تجلوها العبارات .

والذي يعظم علم وطنه يعلم أنه في ذاته قطعة نسيج لا قيمة لها ماديا ولكنه يشعر كذلك أنها ترمز إلى كل معاني المجد والسمو التي يعتز بها وطنه ، وأنها تصور أدق المشاعر في وطنيته . . فهو يحيى هذا العلم ويعظمه ويحترمه ويكرمه لهذه المعاني التي تجمعت جميعا وتمثلت فيه .

والكعبة المشرفة علم الله المركوز في أرضه ، ليمثل به الناس أوضح معاني أخوتهم ، وليرمز به إلى أقدس مظاهر وحدتهم ، وإنما كانت بناء ليكونوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ، ومن أجمل الجميل أن يقوم على رفع هذا البناء إبراهيم الخليل أبو الأنبياء.

" وما الحجر الأسود : إلا موضع الابتداء ونقطة التميز في هذا البناء ، وعنده تكون البيعة لرب الأرض والسماء . . على الإيمان والتصديق والعمل والوفاء : " اللهم إيمانا بك . لا بالحجر . وتصديقا بكتابك . لا بالخرافة . ووفاء بعهدك . وهو التوحيد الخالص لا الشرك . واتباعا لسنة نبيك صلى الله عليه وسلم محطم الأصنام.

" فأين هذه المعاني الرمزية العلوية ، من تلك المظاهر الوثنية الخرافية ؟ إن الكعبة المشرفة رمز قائم خالد . ركز الإسلام من حوله أخلد وأقدس وأسمى معاني الإنسانية العالمية ، والأخوة بين البشر جميعا { وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا } [البقرة :125] .

* * *

المطلب التاسع

معرفة بعض منافع الحج

-

إعلم أن المقصد الأول من العبادات هو الامتثال لله والوفاء بحقه تعالى ، ومع هذا لا ننكر أن وراء العبادات آثارا طيبة ومنافع جمة ، في حياة الفرد والجماعة [1].

والحج هو أكثر العبادات الإسلامية اشتمالا على الأمور التعبدية . التي لا تعرف حكمتها معرفة تفصيلية على وجه التأكيد . ولكن لعله أيضا أوضح هذه العبادات أثرا في حياة المسلمين أفرادا وشعوبا ، وكيف لا وقد قال الله { وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق (27) ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله . . } [الحج :27 ، 28].

إن هذا التعليل القرآني لهذه الرحلة المباركة التي يقطعها الناس ركبانا ومشاة قادمين من كل فج عميق ، يفتح لنا بابا رحبا للتأمل في هذه المنافع المشهودة التي قدمها القرآن على ذكر اسم الله .

وقد بينا في المطلب السابق : منافع الحج المعنوية .

ونذكر هنا بعض منافعه المادية التي أنعم الله بها علينا :

إذ الحج من الجانب المادي : فرصة متاحة لتبادل المنافع التجارية على نطاق واسع بين المسلمين .

وقد كان بعض المسلمين في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم يتحاشون التجارة في أيام الحج ويتحرجون من كل عمل دنيوي يجلب لهم ربحا أو يدر عليهم رزقا ، خشية أن ينال ذلك من عبادتهم ، أو يحط من مثوبتهم عند الله عز وجل ، فأجاز الله الكريم لهم ذلك ، ما دامت النية خالصة ، والمقصود الأصلي هو الحج ، ولكل امرئ ما نوى .

---

[1] - المصدر السابق.

روى البخاري عن ابن عباس قال : كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقا في الجاهلية ، فتأثموا . أي تحرجوا . أن يتجروا في الموسم . أي موسم الحج . فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، فنزلت الآية{ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم } [البقرة :198].

قال في تفسير المنار : " كان بعض المشركين وبعض المسلمين يتأثمون في أيام الحج من كل عمل حتى كانوا يقفلون حوانيتهم ، فعلمهم الله تعالى أن الكسب طلب فضل من الله لا جناح فيه مع الإخلاص ، وقوله تعالى { من ربكم} يشعر بأن ابتغاء الرزق مع ملاحظة أنه فضل من الله تعالى نوع من أنواع العبادة . وروى أن عمر قال لسائل في هذا المقام : وهل كنا نعيش إلا على التجارة ؟ .

* * *

المطلب العاشر

الانتفاع بهذا المؤتمر السنوي العالمي الكبير

.

والحج : يتيح للمسلم أن يشهد أعظم مؤتمر سنوي إسلامي ، مؤتمر لم يدع إليه ملك أو رئيس أو حكومة أو هيئة ، بل دعا إليه الله العلي الكبير الذي فرض إقامته كل عام على المسلمين[1].

فهناك يجد المسلم إخوانا له من قارات الدنيا الخمس .. اختلفت أقاليمهم واختلفت ألوانهم ، واختلفت لغاتهم ، وجمعتهم رابطة الإيمان والإسلام ، ينشدون نشيدا واحدا : (لبيك اللهم لبيك) .

إن هذا المؤتمر : له أكثر من معنى ، وأكثر من إيحاء ، إنه يحيى في المسلم الأمل ، ويطرد عوامل اليأس ، ويبعث الهمة ، ويشحذ العزم ، حيث إن التجمع يوحي دائما بالقوة ، ويوقظ الآمال الغافية ، والذئب إنما يأكل من الغنم الشاردة.

---

[1] - المصدر السابق.

إن هذا المؤتمر : أعظم مذكر للمسلم بحق أخيه المسلم ، وإن تباعدت الديار، وأعظم مذكر بأخوة الإسلام ، ورابطة الإيمان ، هذا المؤتمر هو "الفرن العالي" الذي تذوب في حرارته النزعات القومية والوطنية ، وتختفي فيه كل الشعارات والجنسيات إلا شعارا واحدا {إنما المؤمنون إخوة} [الحجرات : 10].

في هذا المؤتمر : يلتقي رجال العلم ، ورجال الإصلاح ، ورجال السياسة ، فما أجدرهم . وقد التقوا على هدف واحد . أن يتعارفوا ويتفاهموا ويتعاونوا على تدبير أفضل الخطط ، وأحسن الوسائل ، ليبلغوا الأهداف ويحققوا الآمال.

ولقد نبهنا الرسول الكريم إلى قيمة هذا المؤتمر حين اتخذ منه منبرا لإذاعة أهم القرارات والبلاغات التي تتصل بالسياسة العامة للمسلمين .

ففي أول سنة حج فيها المسلمون تحت إمارة أبي بكر ، بعث النبي وراءه عليا ليعلن على الناس إلغاء المعاهدات التي كانت بينه وبين المشركين الناكثين ، وأن لا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان.

وفي السنة التالية التي حج فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه أعلن فيها على الجمهور خطبة "البلاغ" أو "الوداع" التي لخص فيها أهم مبادئ الإسلام ودستور الإسلام .

ولقد عرف علماء الإسلام قيمة هذا المؤتمر . . فاتخذوا منه فرصة ، لتبادل الآراء ، وتعارف الأفكار ، ورواية الأحاديث والأخبار.

كما عرف الخلفاء قيمة هذا الموسم العالمي.. فجعلوا منه ساحة لقاء بينهم وبين أبناء الشعب القادمين من كل فج عميق ، وبينهم وبين ولاتهم في الأقاليم ، فمن كانت له من الناس مظلمة أو شكاية فليتقدم بها إلى الخليفة ذاته بلا وساطة ولا حجاب ، وهناك يواجه الشعب الوالي أمام الخليفة بلا تهيب ولا تحفظ ، فيغاث الملهوف ، وينصف المظلوم ، ويرد الحق إلى أهله ، ولو كان هذا الحق عند الوالي أو الخليفة !!

كتب عثمان بن عفان أمير المؤمنين وخليفتهم إلى جميع الأمصار الإسلامية كتابا قال فيه :

" إني آخذ عمالي ـ أي ولاتي ـ بموافاتي في كل موسم ، وقد سلطت الأمة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فلا يرفع على شئ ولا على أحد من عمالي إلا أعطيته ، وليس لي ولا لعمالي حق قبل الرعية إلا متروك لهم ، وقد رفع إلى أهل المدينة أن أقواما يشتمون ويضربون . . فمن ادع شيئا من ذلك فليواف الموسم ، يأخذ حقه حيث كان ، مني أو من عمالي ، أو تصدقوا إن الله يجزي المتصدقين " .

ومما ينبغي أن نذكره هنا : أن هذا المؤتمر لم يكن فرصة للمسلمين وحدهم للتظلم من ولاتهم وطلب حقوقهم ، بل وجد فيه غير المسلمين ـ ممن يعيشون في ظل دولة الإسلام ـ هذا المعنى وتلك الفرصة .

وكلنا يعلم قصة ابن القبطي الذي سابق ابن والي مصر وفاتحها عمرو بن العاص فسبق القبطي ، فضربه ابن عمرو فأنهى أبوه مظلمته إلى عمر ، فاقتصه منه في موسم الحج على مرأى ومسمع من ألوف الحجيج ، ثم قال للوالي عمرو كلمته الشهيرة أمام شهود المؤتمر الكبير : يا عمرو متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟ !

فلا عجب أن كانت هذه العبادة "الحج" قذى أعين الكثيرين من خصوم الإسلام فيشهرون أقلامهم لتشويهه أو الطعن فيه ، ولكن يأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون .

من سنوات كتب أحد المبشرين النصارى في تقرير له عن مدى جدوى التبشير في بلادنا الإسلامية وخاصة في مصر فكان مما قال فيه : " سيظل الإسلام صخرة عاتية تتحطم عليها سفن التبشير المسيحي ما دام للإسلام هذه الدعائم الأربع : القرآن . . والأزهر . . واجتماع الجمعة الأسبوعي . . ومؤتمر الحج السنوي".

وإن هذه الأربعة لباقية بإذن الله ما بقى هذا الإنسان على تلك الكرة ، وليمت من شاء بغيظه !!

على أن المسلمين ـ للأسف ـ لا يستفيدون من هذا المؤتمر العظيم كما ينبغي ، ولعلهم قد بدأوا يفيقون .

هذا . .

وفي الأجانب من شهد بفضل هذه الشعيرة الإسلامية العظيمة ، وأشاد بما لها من مآثر وآثار في النفس والحياة .

ومن هؤلاء الأستاذة الإيطالية الدكتور فاغليري في كتابها الذي ترجم بعنوان "دفاع عن الإسلام" قالت فيه عن الحج : " على كل مسلم ، إذا توفرت فيه بعض الشروط أن يقوم بالحج إلى مكة مرة واحدة في حياته على الأقل ، ومن طبيعة القوى العميقة المكنونة في هذه الشعيرة أن يعجز العقل البشري عن اعتناقها إلا في القليل النادر ، ومع ذلك فإن ما يمكن استيعابه من تلك القوى ، في سهولة ويسر ، يتكشف عن حكمة كاملة ، فليس في استطاعة أحد أن ينكر الفائدة التي يجنيها الإسلام من اجتماع المسلمين السنوي في مكان واحد يسعون إليه من مختلف أرجاء العالم .

إن العرب ، والفرس ، والأفغان ، والهنود ، وأبناء جزيرة الملايو ، وأبناء المغرب ، والسودان ، وغيرهم ، كلهم يتوجهون نحو الكعبة المقدسة لمجرد التماس الغفران من الله الرحمن الرحيم ، وهم إذ يلتقون في مثل ذلك المكان لمثل هذا الغرض إنما ينشئون صلات جديدة من المحبة والإخوة.

مرة واحدة في حياة المسلم على الأقل تلغي الفروق كافة بين الفقير والغني ، بين الشحاذ والأمير ، إلغاء تاما.

ذلك أن كل حاج مسلم يلبس خلال أداء تلك الفريضة المقدسة ، الثياب البسيطة نفسها ، ويخلف وراءه حلله الشخصية ، ويتخذ لنفسه شعارا واحدا ليس غير ، هو كلمة (الله أكبر) . والشعائر التي يتعين على الحجاج أداؤها ، من مثل الطواف ببيت الله (الكعبة) توقظ في نفسه ذكرى الأنبياء والآباء العظام الذين عاشوا في المواطن نفسها خلال العصور السالفة . إنها تعيد إلى الحياة أعمال إبراهيم ، مؤسس الدين الخالص وأعمال ابنه إسماعيل وزوجته هاجر ، وهي توقظ في الحاج النزعة إلى تقليدهم في تعاطفهم وفي خضوعهم لمشيئة الله "[1].

---

[1] - المصدر السابق.

* * *

الفصل الثاني
ذكريات غالية
-

- **تمهيد**
- **الذكرى الأولى : ذكرى أبينا آدم عليه السلام .**

- **الذكرى الثانية : هجرة إبراهيم الأولى إلى مكة .**
- **الذكرى الثالثة : هرولة هاجر بين الصفا والمروة .**
- **الذكرى الرابعة : رؤيا إبراهيم عليه السلام .**
- **الذكرى الخامسة : رحلات إبراهيم عليه السلام إلى مكة .**
- **الذكرى السادسة : رفع قواعد البيت .**
- **الذكرى السابعة : حادثة الفيل.**
- **الذكرى الثامنة : ميلاد محمد صلى الله عليه وسلم .**
- **الذكرى التاسعة : سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم .**
- **الذكرى العاشرة : حجة الوداع .**

*** * ***

تمهيد

.

هذه مجموعة من الذكريات العطرة ، التي ينبغي أن يعرفها المسلم قبل ذهابه إلى الرحاب الطاهرة ، والتي ينبغي عليه أن يعايشها ، ويتفيأ ظلالها وهو يتنقل في هذه البقاع المقدسة ، خلال رحلته ؛ حتى يتمكن من الإفادة بأكبر قدر ممكن حين أداء هذه الفريضة العظيمة .

*** * ***

الذكرى الأولى

.

ذكرى أبينا آدم عليه السلام ، وهو يهبط من الجنة إلى الأرض .

يقول رب العزة { وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين (35) فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين (6) فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو

التواب الرحيم (37) قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون (38) والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون } [البقرة :35 . 49] .

وقصة آدم عليه السلام مذكورة في آيات كثيرة وسور عديدة من آيات القرآن الكريم وسوره ، وبتفصيلات دقيقة وافية .

ويقول بعض العلماء : إن آدم عاش ألف عام ، ثم مات بعد ذلك ، ودفن بجبل أبي قبيس " بمكة المكرمة ، ولما حضرته الوفاة جاءته الملائكة من السماء بكفن وحنوط من الجنة ، وبعد أن غسلوه وكفنوه ، حفروا له ، وألحدوه ، وصلوا عليه ، ثم أدخلوه قبره ، فوضعوه فيه ، ثم حثوا عليه التراب ، وقالوا : يا بني آدم . . هذه سنتكم [1].

ولكن الذي يعنينا هنا أن نستخلص من قصته هذه بعض العظات والعبر ، التي نستفيد منها وبها إن شاء الله تعالى.

وأهم هذه الفوائد ما يلي [2] : .

أولا : أن الله سبحانه وتعالى قد كرم هذا النوع البشري ، حين خلق آدم بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له الملائكة ، وجعله خليفة في الأرض . . وهذا : تكريم لآدم وذريته .

ثانيا : أن الله تعالى قادر على كل شئ فقد يجعل من الأمر الحقير أمرا هاما وعظيما ، فقد خلق آدم من تراب ثم جعله بشرا سويا ، وأفاض عليه من أسرار قدرته وبدائع حكمته ما جعله أهلا للاستخلاف في الأرض ، كما علمه أسماء كل الأشياء مما عجزت عنه الملائكة الأطهار.

ثالثا : أن على الإنسان أن يحذر مكائد الشيطان ، فقد كان السبب في خروج أبينا آدم من الجنة،وعداوته قديمة لنا منذ ظهور آدم عليه السلام { إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا } [فاطر :6] .

---

[1] - انظر : محمد علي الصابوني . . النبوة والأنبياء ص 130.

[2] - السابق.

فلا ينبغي أن ننخدع بوساوس إبليس اللعين ، فهو حرب علينا إلى يوم الدين.

رابعا : أن الإنسان مجبول على الخطأ ، معرض للنسيان ؛ لأنه خلق من ضعف ، وما وقعت مخالفة آدم لأمر الله إلا بسبب ذلك الضعف البشري ؛ حيث استجاب لنداء اللعين إبليس ، ونسى أمر الله .

خامسا : على الإنسان ألا يقنط من رحمة الله ، ولا ييأس من عفوه فيما إذا وقع في خطيئة ، أو حصلت منه سقطة ، أو ألم بذنب ؛ فقد علمنا الله سبحانه كيف نتوب إليه ، وكيف نتخلص من الذنوب والآثام { فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم } [البقرة :37].

ويروي عن الحسن [1] : أنه لما تاب الله عز وجل على آدم عليه السلام هنأته الملائكة ، وهبط عليه جبريل وميكائيل عليهما السلام .

فقالا : يا آدم .. قرت عينك بتوبة الله عليك . . ؟

فقال : يا جبريل . . فإن كان بعد هذه التوبة سؤال.

قال جبريل : ما هو . . ؟

قال : فأين مقامي . . ؟

فأوحى الله تبارك وتعالى إليه : يا آدم . . ورثت ذويك التعب والنصب ، وورثتهم التوبة ، فمن دعاني منهم لبيته كما لبيتك ، ومن سألني المغفرة لم أبخل عليه ؛ لأني قريب مجيب يا آدم ، وأحشر التائبين من القبور مستبشرين ضاحكين ، ودعاؤهم مستجاب.

* * *

الذكرى الثانية

هجرة إبراهيم الأولى إلى مكة

.

[1] - الإمام الغزالي . . إحياء علوم الدين 7/4.

ذكرى سيدنا إبراهيم عليه السلام في هجرته الأولى إلى مكة المكرمة ، وهو يقول { ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون } [إبراهيم :37].

وكان ذلك : حين أخذ إبراهيم عليه السلام زوجه "هاجر" وولدهما إسماعيل عليه السلام ، وخرج بهما من أرض "فلسطين" حيث كانوا يعيشون جميعا مع زوجته الأولى "سارة" خرج وسار بهما يقطع الصحاري والقفار ؛ لأسباب لا يتسع المقام لذكرها [1].

حتى بلغ جبال مكة الجرداء . . فوضعهما في ذلك المكان القفر ، الذي ليس به ساكن ولا سمير ، ولم يكن بمكة في ذلك الوقت أحد ، ولم يكن بها دار أو بنيان ، تركهما في ذلك المكان المقفر عند دوحة قرب زمزم ، وترك لهما جرابا (أي كيسا) فيه تمر ، وسقاء فيه ماء ، ثم أراد العودة إلى بلاد فلسطين ، فلحقته أم إسماعيل وهي تقول : يا إبراهيم هل تتركنا في هذا المكان الذي ليس فيه سمير ولا أنيس ؟ فجعل لا يلتفت إليها مخافة أن تصده عن تنفيذ أمر الله ، وجعلت تكرر القول وهو لا يلتفت فقالت له عند ذلك : " الله أمرك بهذا ؟ قال : نعم ، قالت : إذ لن يضيعنا الله " .

الله أكبر . . إنه الإيمان الذي يصنع الأعاجيب ، ويأتي بالغرائب التي تكاد لا تصدق ، فكيف تطمئن نفس إبراهيم إلى أن يترك وليده الرضيع مع أمه في مكان موحش قفر ، ليس به ساكن ولا سمير ولا أنيس !!

وكيف رضيت (هاجر) أن تبقى وحيدة فريدة في بقعة جرداء ، ليس فيها طعام ولا ماء ، وتتعرض للجوع القاتل ، والعطش المميت ، والذئاب الموحضة الضارية ؟ ! إنه الإيمان الذي عمر قلب إبراهيم وزوجه هاجر ، حتى ضحيا براحتهما في سبيل تنفيذ أمر الله .

ولما ابتعد إبراهيم عن زوجه وولده قليلا التفت جهة البيت ووقف يدعو بهذه الدعوات : { ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك

---

[1] - انظر : كتب التاريخ ، ومحمد علي الصابوني . . في "النبوة والأنبياء " ص 158 وما بعدها .

المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون } [إبراهيم :37].

أن من يتدبر في الآيات الواردة في دعاء خليل الله إبراهيم ، عليه السلام[1].

يفهم من قوله { ربنا إني أسكنت من ذريتي } ، أن إبراهيم عليه السلام هو الذي عمر مكة شرفها الله تعالى ، بإسكان بعض ذريته فيها امتثالا لأمره سبحانه وتعالى ، لا أنه أتى بهم للسياحة والنزهة ، فبلدة ليس بها أنيس ولا ماء ولا شجر ، لا يأتي الإنسان إليها للفسحة والاسترواح من بلاد الشام العامرة بالفواكه والثمار والخضرة والأنهار.

كما يفهم من قوله : ، أنه أسكن بعضهم بمكة { من ذريتي } ، وأما البعض الآخر ، فقد بقوا في بلدتهم الأصلية ولم يحضروا معه إلى مكة ، لأنه عليه السلام ، احضر إلى مكة ابنه إسماعيل مع أمه هاجر فقط تنفيذا لرغبة زوجته سارة ، وامتثالا لأمر الله الذي أمره بالهجرة إلى مكة معهما .

ويفهم صراحة من قوله : { بواد غي ذي زرع } أن مكة كلها كانت قفرا لا نبات فيها ولا ماء ، فليس المراد بالوادي هو مجرى السيل من شارع القشاشية الذي بقرب المسجد الحرام فقط ، كما يفهمه بعضهم ، بل المراد مكة كلها من جميع الأطراف كما لا يخفى على المتأمل ، والله تعالى أعلم .

فإبراهيم عليه الصلاة والسلام هو أول من أطلق على مكة كلمة "وادي" كما هو صريح في هذه الآية : { بواد غير ذي زرع } فنسبة وادي إبراهيم إليه نسبة تشريف ، فإن هو أول من أتى إليه وأسكن بعض ذريته فيه .

ومعنى قوله : { بواد غير ذي زرع } أي في بدء الأمر ، وأصل الخلقة في عهد إبراهيم ومن قبل عهده ، فلا محل للاعتراض أن وجد فيما بعد ماء وزرع بالإنبات ، وإيصال الماء إليه وحفر الآبار ، لأن وجود البشر والسكان في الوادي ، يقتضي اشغال الأيدي العاملة بعمارته بالماء والزرع والبنيان ، كما هو سنة الله في خلقه .

---

[1] - محمد طاهر الكردي. . كتاب التاريخ القديم لمكة وبيت الله الكريم ص 8 . 10 .

وبهذا المعنى ينتفي إشكال من يقول : كيف يقول بواد غير ذي زرع ، بينما مكة اليوم ولله الحمد فيها الزروع والبساتين .

وأيضا يمكن أن نقول : إذا قسنا اليوم ما يوجد بمكة من البساتين والزروع ، إلى ما يوجد بمصر والشام وغيرهما من الزروع والأنهار والبساتين والثمار ، لوجدنا أن ما هو بمكة شئ قليل ونسبة ضئيلة لا تذكر في جانب ما هو في الخارج ، والقليل لا حكم له ، فكأن مكة ليست بذات زروع وثمار.

ويفهم من قوله:{ عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة}،أنه سبحانه وتعالى ، قد أعلمه بمكان بيته الحرام بمكة قبل أن يأمره ببنائه ، ليطمئن قلبه عند تركه إسماعيل وأمه بها أن لهما مستقبلا سعيدا،وشأن عظيما فيما بعد.

وقوله : { ليقيموا الصلاة } أي إني أسكنت من ذريتي عند بيتك المحرم ليعبدوك بإقامة الصلوات وحج البيت وأنواع البر والعبادات ، فالصلاة والصيام والحج من العبادات التي كانت قبل الإسلام،وإقامتها بهذه الكيفية من خصوصيات هذه الأمة المرحومة .

وقوله : { فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم } هذه عبارة بديعة وجملة لطيفة ، فإنه لما ترك إبراهيم عليه السلام ، ولده اسماعيل وأمه هاجر بمكة لا أنيس لديهما ، أحب أن يرسل الله إليهما من خيار الناس وأفاضلهم ليأتنسا بهم وينسيا غربتهم ، فتذهب وحشتهم ، وبالفعل فقد أرسل الله لإسماعيل عليه السلام وأمه هاجر عندما نبع لهما زمزم طائفة من أخيار قبيلة جرهم ، استأذنوا هاجر في النزول عندها ، والإقامة معها وإسماعيل كان صغيرا ، فقالوا لها : اشركينا في مائك نشركك في ألباننا ، فأذنت لهم ، فأقاموا عندها وأحبوا إسماعيل حتى زوجوه بامرأة منهم .

ويؤخذ من قوله : { من الناس } المقصود طائفة منهم لا كلهم ، فكلمة "من" للتبعيض أي بعضهم . ولذلك قال ابن عباس ، رضى الله عنهما : لو قال أفئدة الناس ، لحنث إليه فارس والروم والناس كلهم .

وقوله : { وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون } : هذا منتهى الرحمة ومنتهى العناية والرأفة بأهله ، صلى الله عليه وسلم وأولاده ، فإنه قد ترك

إسماعيل وأمه ، بشئ من التمر وقليل من الماء في مكان قفر لا نبات فيه ولا ماء ، ولا بشر ، وهم لابد وأن يحصلوا على قوتهم من اللحم واللبن والثمرات ، فدعا لهم بكل ذلك .

فالثمرات ، وان كانت ليس من القوت الضروري ، فهي تفيد الإنسان فائدة كبرى كما لا يخفى ، فأراد إبراهيم ، عليه السلام ، أن ينعم الله عليهم بالكماليات من الفواكه ، كما ينعم عليهم بالقوت الأساسي ، فدعا الله لهم أن يرزقهم من الثمرات ليتفكهوا بها ، ثم دعا لهم ثانيا حينما أتى من الشام لزيارتهم بالبركة في اللحم والماء ، فببركة دعائه ، صلى الله عليه وسلم ، صارت مكة عامرة بكل شئ ، ممتلئة بالأرزاق والثمار في كل وقت من الأوقات ، وفاء لما وعد الله به أهل هذا البلد الآمن بقوله : " يجبى إليه ثمرات كل شئ رزقا من لدنا" . فالحمد لله رب العالمين .

وأما قوله : " ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن وما يخفى على الله من شئ في الأرض ولا في السماء " ، فيفهم منه أنه ، صلى الله عليه وسلم ، كان يحمل في قلبه لوعة فراق زوجته وولده ، ويحمل همهما وما سيؤول إليه أمرهما وقد تركهما في صحراء ، ليس عندهما قريب ولا غريب ، امتثالا لأمر الله سبحانه وتعالى ، لكنه ، صلى الله عليه وسلم ، لا يريد أن يفصح بلسانه عما في قلبه ، وذلك من كمال الإيمان والتفويض ونهاية الاستسلام والخضوع لله الواحد القاهر . وهذا من قبيل : " تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما نفسك" . ومن قبيل : " إنما أشكو بثي وحزني إلى الله " .

فقوله : " ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن" ، هو عرض الحال إلى الله عز وجل ، بلطيف الإشارة وبكمال الأدب ومنتهى الاسترحام والاستعطاف . ولقد استجاب الله دعاءه وحقق رجاءه ، وحفظ له أولاده ، وجعلهم من المصطفين الأخيار.

ويؤخذ من آية :"ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع . . . إلخ" ، أن يدعو الإنسان لأهله وأولاده ومعارفه وأحبابه عند فراقهم بكل خير ،

ويتضرع إلى الله عز شأنه أن يحفظهم ويهديهم ، وأن يسهل لهم سبل المعيشة برفاهية تامة .

اللهم إنا نسألك أن تيسر لنا أمورنا ، وتنور قلوبنا ، وتصلح أحوالنا ، وترزقنا من فضلك العظيم رزقا حلالا واسعا ، وتسترنا في الدنيا والآخرة ، واحفظنا في أهلنا وأولادنا واجعلهم لنا قرة أعين ، واختم لنا بخير يا أرحم الراحمين آمين ، وصلى الله وسلم على جميع الأنبياء والمرسلين ، وآل كل منهم وصحابتهم أجمعين ، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

* * *

الذكرى الثالثة

هرولة هاجر بين الصفا والمروة

.

ذكرى السيدة "هاجر" وهي تهرول بين جبلي "الصفا والمروة" بحثا عن الماء ، ونبع ماء " زمزم" [1].

حيث بقيت هاجر ترضع ولدها إسماعيل وتشرب من ذلك الماء الذي كان معهما ، بعد أن تركهما إبراهيم عليه السلام في هذا المكان ، حتى نفذ ما في السقاء ، فعطشت وعطش ابنها وجعل ولدها يبكي يتلوي من شدة العطش فانطلقت تفتش له عن ماء فوجدت (الصفا) أقرب جبل يليها فصعدت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدا ؟ فلم تر أحدا فهبطت من الصفا حتى بلغت الوادي ، وسعت سعى المجهود حتى وصلت إلى جبل (المروة) فصعدت عليه ونظرت فلم تجد أحدا ، فأخذت تذهب وتجئ بين (الصفا والمروة) سبع مرات ، وبينما هي على المروة سمعت صوتا فقالت : أغثنا إن كان عندك غواث ، فرأت ملكا . وهو جبريل . يضرب بعقبه . وقيل بجناحه . الأرض حتى ظهر الماء فنبعت زمزم ، فجعلت أم إسماعيل تحوط الماء وتغرف منه بسقائها وهو يفور بعد ما تغرف ، ثم قال لها ذلك الملك : لا تخافي الضيعة (الضياع)

---

[1] - انظر : محمد علي الصابوني . . النبوة والأنبياء ص 161.

فإن لله ههنا بيتا . وأشار إلى قطعة مرتفعة من الأرض . يبنيه هذا الغلام وأبوه . . ثم غاب الملك عنها ، وبدأت الطير ترد إلى الماء وتحوم حوله ومرت قبيلة (جرهم) فرأوا الطير فاستدلوا على وجود الماء فوصلوا إلى (زمزم) واستأذنوا من أم إسماعيل أن يضربوا خيامهم قريبا منها فأذنت لهم واستأنست بوجودهم ، ثم تكاثرت البيوت ، وشب إسماعيل وتزوج من القبيلة وتعلم العربية منهم وأصبحت مكة مأهولة بالسكان منذ ذلك الحين بعد أن كانت قفرا موحشا.

وتوفيت (هاجر) وإبراهيم عليه السلام لا يزال بعيدا عنها في أرض فلسطين ، ثم بعد مرور سنين عديدة حن قلب إبراهيم إلى رؤية زوجه وولده.

* * *

الذكرى الرابعة

رؤيا إبراهيم عليه السلام

.

ذكرى إبراهيم عليه السلام ، وهو يرى في المنام أنه يذبح ولده إسماعيل ، وهو يقول له [1] :

{يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين (102) فلما أسلما وتله للجبين(103) وناديناه أن يا إبراهيم (104) قد صدقت الرءيا إنا كذلك نجزي المحسنين(105) إن هذا لهو البلاء المبين(106)وفديناه بذبح عظيم }[الصافات :102. 107].

حيث رأى إبراهيم عليه السلام في منامه رؤيا . ورؤيا الأنبياء حق أن الله تعالى يأمره بذبح ولده البكر (إسماعيل) عليه السلام الذي لم يكن له ولد غيره ، وقد رزقه الله به على كبر وشيخوخة ، فما كان من إبراهيم عليه السلام بعد أن استيقظ من النوم إلا أن سارع لتنفيذ أمر الله ، دون تلكو أو تردد ، ولكنه أراد أن يختبر ولده ، ويرى مقدار استجابته وطاعته لله فقال له : { يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى } .

---

[1] - المرجع السابق : ص 162 ، 163.

عرض عليه ذلك الأمر ليكون أطيب لقلبه ، وأهون عليه من الأخذ بالقوة فبادر الغلام الحليم ، إلى الطاعة ، وسرعة الإجابة فقال : { يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين } .

بر عظيم ، وتوفيق من الله كبير ، وإيمان زعزع الجبال . من الوالد وولده . تظهر فيها العبودية لله على أكمل صورها ، الأب يؤمر فيسارع إلى تنفيذ أمر الله ، والولد يستشار فيلبي طائعا مستسلما لحكم الله . . كأن الأمر جرعة من ماء ، أراد الولد أن يخفف عن أبيه لوعة الثكل ، ويرشده إلى أقرب السبل ، ليصل إلى قصده فقال : يا أبت اجعل لي وثاقا ، واحكم رباطي حتى لا أضطرب ، واشحذ شفرتك ، وأسرع إمرارها على حلقي ، ليكون أهون علي ، فإن الموت شديد ، ووقعه أليم . . فقال له إبراهيم : (نعم العون أنت يا بني على تنفيذ أمر الله) ثم ضمه إلى صدره ، وأخذ يقبله ويودعه ثم أسلم إبراهيم ابنه فصرعه على شقه ، وأوثقه بكتافه ، ووضع السكين على حلقه ، وأمرها فوق عنقه ، ولكنها لم تقطع فقد انقلبت في يده وكأنها قطعة من الخشب ، فقال له إسماعيل : يا أبت كبني على وجهي ، فإنك إذا نظرت إلى أدركتك رحمة بي تحول بينك وبين أمر الله . . ففعل ثم وضع السكين على قفاه فلم تمض الشفرة لأن الله تعالى قد سلبها خاصية القطع ، عند ذلك جاء النداء الإلهي { وناديناه أن يا إبراهيم (104) قد صدقت الرءيا إنا كذلك نجزي المحسنين (105) إن هذا لهو البلاء المبين (106) وفديناه بذبح عظيم } [الصافات :104 . 107] .

* * *

الذكرى الخامسة

ذكرى رحلات إبراهيم عليه السلام الأخرى إلى مكة

.

من المعلوم [1] أن إبراهيم عليه السلام قدم . في المرحلة الأولى . بزوجه وولده إلى الحجاز ، وأسكنهما بواد غير ذي زرع عند بيت الله المحرم الذي لم يكن إذ

[1] - انظر : صفي الرحمن المباركفوري . الرحقيق المختوم . ص 1 ، 22.

ذاك إلا مرتفعا من الأرض كالرابية ، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله ، فوضعهما عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد ، وليس بمكة يومئذ أحد ، وليس بها ماء . فوضع عندهما جرابا فيه تمر ، وسقاء فيه ماء ، ورجع إلى فلسطين ، ولم تمض أيام حتى نفذ الزاد والماء ، وهناك تفجرت بئر زمزم بفضل الله ، فصارت قوتا لهما وبلاغا إلى حين ، والقصة معروفة بطولها[1].

وجاءت قبيلة يمانية . وهي جرهم الثانية . فقطنت مكة بإذن من أم إسماعيل يقال إنهم كانوا قبل ذلك في الأودية التي بأطراف مكة ، وقد صرحت رواية البخاري أنهم نزلوا مكة بعد إسماعيل ، وقبل أن يشب ، وأنهم كانوا يمرون بهذا الوادي قبل ذلك [2].

وقد كان إبراهيم يرحل إلى مكة بين آونة وأخرى ليطالع تركته ، ولا يعلم كم كانت هذه الرحلات ، إلا أن المصادر التاريخية حفظت أربعة منها :

أ . فقد ذكر الله تعالى في القرآن أنه أرى إبراهيم في المنام أنه يذبح إسماعيل، فقام بامتثال هذا الأمر { فلما أسلما وتله للجبين (103) وناديناه أن يا إبراهيم (104) قد صدقت الرءيا إنا كذلك نجزي المحسنين (105) إن هذا لهو البلاء المبين (106) وفديناه بذبح عظيم } [الصافات :103 . 107].

وسياق القصة يدل على أنها وقعت قبل ميلاد إسحق ، لأن البشارة بإسحاق ذكرت بعد سرد القصة بتمامها .

وهذه القصة تتضمن رحلة واحدة . على الأقل . قبل أن يشب إسماعيل.

ب . أما الرحلات الثلاث الأخر فقد رواها البخاري بطولها عن ابن عباس مرفوعا [3].

وملخصها أن إسماعيل لما شب وتعلم العربية من جرهم ، وأعجبهم زوجوه امرأة منهم ، وماتت أمه .

---

[1] - انظر : صحيح البخاري ، كتاب الأنبياء 474/1 . 475.

[2] - نفس المصدر 475/1.

[3] - ج1 / 475 . 476.

وبدا لإبراهيم أن يطالع تركته فجاء بعد هذا التزوج ، فلم يجد إسماعيل فسأل امرأته عنه وعن أحوالهما ، فشكت إليه ضيق العيش فأوصاها أن تقول لإسماعيل أن يغير عتبة بابه ، وفهم إسماعيل ما أراد أبوه ، فطلق امرأته تلك وتزوج امرأة أخرى ، وهي ابنة مضاض بن عمرو ، كبير جرهم وسيدهم[1].

وجاء إبراهيم مرة أخرى بعد هذا التزوج الثاني فلم يجد إسماعيل فرجع إلى فلسطين بعد أن سأل زوجته عنه وعن أحوالهما فأثنت على الله ، فأوصى إلى إسماعيل أن يثبت عتبة بابه .

وجاء مرة ثالثة فلقى إسماعيل وهو يبري نبلا له تحت دوحة قريبا من زمزم ، فلما رآه قام إليه فصنع كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد ، وكان لقاؤهما بعد فترة طويلة من الزمن ، قلما يصبر فيها الأب الكبير الأواه العطوف عن ولده ، والولد البار الصالح الرشيد عن أبيه .

وفي هذه المرة بنيا الكعبة ، ورفعا قواعدها ، وأذن إبراهيم في الناس بالحج كما أمره الله .

* * *

الذكرى السادسة

رفع قواعد البيت

.

ذكرى إبراهيم عليه السلام وهو يرفع القواعد من البيت ومعه ولده إسماعيل عليه السلام ، وهو يقول : { ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم* ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم } [البقرة : 127 ـ 128].

يقول الإمام ابن كثير ـ يرحمه الله ـ في تفسيره : يقول تعالى . . واذكر ـ يا محمد ـ لقومك بناء إبراهيم وإسماعيل عليهم السلام البيت ، ورفعهما القواعد

[1] - فأنظر : صفي الرحمن المباركفوري..مصدر سابق.

منه، وهما يقولان : { ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم } فهما . عليهما السلام . في عمل صالح ، وهما يسألان الله تعالى أن يتقبل منهما.

هذا . . وبعد تمام البناء: { وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت } أي : أرشده الله إليه، وسلمه له، وأذن له في بنائه: يقول له . .{ ألا تشرك بي شيئا} أي ابنه على اسمي وحدي ، خالصا لي ، ثم يقول له { وطهر بيتي } من الشرك {للطائفين والعاكفين والركع السجود} يعني : اجعله خالصا لهؤلاء الذين يعبدون الله وحده لا شريك له ؛ حيث إن الطواف ، وهو أخص العبادات عند البيت ، لا يفعل ببقعة من الأرض سواها ، وقرن الطواف بالصلاة {والقائمين} في الصلاة { والركع السجود } لأنهما لا يشرعان إلا مختصين بالبيت ، فالطواف عنده ، والصلاة إليه في غالب الأحوال.

أقول : وبعد تمام بنائه ، وتطهيره من الشرك ، وتخليصه للطائفين والعاكفين والركع السجود . . يقول رب العزة لإبراهيم عليه السلام :

{ وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق } [الحج : 25 ، 26] . أي : ناد في الناس داعيا لهم إلى الحد إلى هذا البيت الذي أمرناك ببنائه وتطهيره.

ذكر أنه قال: يا رب . . وكيف أبلغ الناس وصوتي لا يصل إليهم .. ؟

فقيل له: ناد ، وعلينا البلاغ .

فقام على مقامه ، وقيل على جبل الصفا ، وقيل على جبل أبي قبيس..!!

وقال: يا أيها الناس . . ! إن ربكم قد اتخذ بيتا فحجوه.

فيقال: إن الجبال تواضعت حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض ، وأسمع من في الأصلاب والأرحام ، وأجابه كل شئ سمعه ، من حجر ، ومدر ، وشجر ، ومن كتب الله أنه يحج إلى يوم القيامة . . قائلا : " لبيك اللهم لبيك" .

أخي المسلم وأختي المسلمة. . !!

على كل منا أن يتوجه إلى الله تعالى بوافر الشكر ، وعظيم الحمد ، على أن كتب الله لنا ونحن في أصلاب الآباء وأرحام الأمهات أن نحج ، وجعلنا ممن لبى وقال : " لبيك الله لبيك".

* * *

الذكرى السابعة

حادثة الفيل

.

علينا : أن نتذكر "حادثة الفيل" ، وكيف أن الله تعالى يحمي بيته ويصونه من الغزاة والمعتدين .

وقد سجلت هذه الحادثة في كتاب الله تعالى في سورة باسم "الفيل" .

يقول سبحانه: { ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل (1) ألم يجعل كيدهم في تضليل (2) وأرسل عليهم طيرا أبابيل (3) ترميهم بحجارة من سجيل (4) فجعلهم كعصف مأكول } [الفيل].

حيث بنى أبرهة كنيسة لم ير مثلها في زمانها ، ثم كتب إلى النجاشي : إني قد بنيت لك أيها الملك ، كنيسة لم يبن مثلها لملك كان قبلك ، ولست بمنته حتى أصرف إليها حج العرب ! .

فلما تحدثت العرب بكتاب أبرهة ذلك إلى النجاشي غضب رجل من العرب فخرج حتى أتى إليها فقعد فيها [1] ، ثم خرج فلحق بأرضه .

فأخبر بذلك أبرهة فقال : من صنع هذا ؟ فقيل له : صنع هذا رجل من العرب من أهل هذا البيت الذي تحج العرب إليه بمكة ، لما سمع قولك : "أصرف إليها حج العرب " غضب فجاء فقعد فيها ، أي إنها ليست لذلك بأهل.

فغضب عند ذلك أبرهة ، وحلف ليسيرن إلى البيت حتى يهدمه ، ثم أمر الحبشة فتهيأت وتجهزت ، ثم سار وخرج معه بالفيل ، وسمعت بذلك العرب فأعظموه وفظعوا به ، ورأوا جهاده حقا عليهم ، حين سمعوا بأنه يريد هدم الكعبة بيت الله الحرام .

---

[1] - أي أحدث.

ثم مضى أبرهة على وجهه ذلك ، يريد ما خرج له ، حتى إذا مر بالطائف خرج إليه رجال من ثقيف ، فقالوا له : أيها الملك ، إنما نحن عبيدك ، سامعون لك مطيعون ، ليس عندنا لك خلاف ، وليس بيننا هذا الذي تريد . يعنون اللات . إنما تريد البيت الذي بمكة ، فتجاوز عنهم .

فلما نزل أبرهة المغمس [1] بعث رجلا من الحبشة على خيل له ، حتى انتهى إلى مكة ، فساق إليه أموال تهامة من قريش وغيرهم ، فأصاب فيها مائتي بعير لعبد المطلب بن هاشم ، وهو يومئذ كبير قريش وسيدها ، فهمت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بذلك الحرم بقتاله ، ثم عرفوا أنهم لا طاقة لهم به فتركوا ذلك .

وبعث أبرهة حناطة الحميري إلى مكة فقال له : سل عن سيد أهل هذا البلد وشريفها . ثم قال له : إن الملك يقول لك : إني لم آت لحربكم ، إنما جئت لهدم هذا البيت ، فإن لم تعرضوا لنا دونه بحرب فلا حاجة لي في دمائكم . فإن هو لم يرد حربي فأتني به .

فلما دخل حناطة مكة سأل عن سيد قريش وشريفها ، فقيل له : عبد المطلب ابن هاشم . فجاءه فقال له ما أمره به أبرهة ، فقال له عبد المطلب : والله ما نريد حربه ، وما لنا بذلك من طاقة ، هذا بيت الله الحرام ، وبيت خليله إبراهيم عليه السلام ، فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمه ، وإن يخل بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه . فقال حناطة : فانطلق معي إليه ، فإنه قد أمرني أن آتيه بك . فانطلق معه عبد المطلب ومعه بعض بنيه حتى أتى العسكر.

وكان عبد المطلب أوسم الناس وأجملهم وأعظمهم ، فلما رآه أبرهة أجله وأعظمه ، وأكرمه أن يجلسه تحته ، وكره أن تراه الحبشة يجلس معه على سرير ملكه ، فنزل أبرهة عن سريره ، فجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جنبه ، ثم قال لترجمانه : قل له : حاجتك . فقال له ذلك الترجمان ، فقال : حاجتي أن يرد على الملك مائتي بعير أصابها لي ، فلما قال ذلك قال أبرهة لترجمانه : قل له : قد كنت أعجبتني حين رأيتك ، ثم قد زهدت فيك حين

[1] - المغمس : موضع قرب مكة في طريق الطائف.

كلمتني ! أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تلكمني فيه ؟ قال له عبد المطلب : إني أنا رب الإبل ، وإن للبيت ربا سيمنعه ! قال : ما كان ليمتنع مني ! . قال : أنت وذاك.

ورد أبرهة على عبد المطلب الإبل التي أصاب له ، وانصرف عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر ، وأمرهم بالخروج من مكة إلى الجبال والشعاب ، تخوفا عليهم من معرة الجيش [1] .

ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة ، وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده ، فقال عبد المطلب : وهو آخذ بحلقة باب الكعبة :

لا هم إن العبد يمنـ ـع رحله فامنع رحالك

لا يغلبن صليبهـم ومحالهم غدوا محـالك [2]

إن كنت تاركهم وقبـ ـلتنا فأمر ما بدا لـك

ثم أرسل عبد المطلب حلقة باب الكعبة ، وانطلق هو ومن معه من قريش إلى شعف الجبال ، فتحرزوا فيها ينتظرون ما أبرهة فاعل بمكة إذا دخلها.

فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة ، وهيأ فيله ، وعبى جيشه ، وكان اسم الفيل "محمودا" وأبرهة مجمع لهدم البيت ثم الانصراف إلى اليمن ، فلما وجهوا الفيل إلى مكة ، برك الفيل ، وضربوا الفيل ليقوم فأبى فوجهوه راجعا إلى اليمن فقام يهرول ، ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك ، ووجهوه إلى مكة فبرك ، فأرسل الله تعالى طيرا من البحر ، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها : حجر في منقاره ، وحجران في رجليه ، أمثال الحمص والعدس ، لا تصيب منهم أحدا إلا هلك ، وليس كلهم أصابت ، وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق الذي منه جاءوا ، يتساقطون بكل طريق ، ويهلكون بكل مهلك ، على كل منهل ، وأصيب أبرهة في جسده فمات.

قال ابن إسحاق :

---

[1] - معرة الجيش : شدته

[2] - المحال : بالكسر : الشدة والقوة .

فلما بعث الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم كان مما يعد الله على قريش من نعمه عليهم وفضله ، ما رد عنهم من أمر الحبشة ، لبقاء أمرهم ومدته ، فقال الله تبارك وتعالى : [ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل (1) ألم يجعل كيدهم في تضليل (2) وأرسل عليهم طيرا أبابيل (3) ترميهم بحجارة من سجيل (4) فجعلهم كعصف مأكول } [الفيل] .

* * *

الذكرى الثامنة

ميلاد محمد صلى الله عليه وسلم

.

ذكرى ميلاد رسول الله صلى الله عليه وسلم في مكة المكرمة ، وهو أشرف ولد آدم ، وأفضلهم نسبا ، من قبل أبيه وأمه صلى الله عليه وسلم .

ويزعمون [1] . فيما يتحدث الناس ، والله أعلم . أن آمنة بنت وهب أم رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت تحدث : أنها أتيت حين حملت برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقيل لها : إنك قد حملت بسيد هذه الأمة ، فإذا وقع إلى الأرض ، فقولي : "أعيذه بالواحد ، من شر كل حاسد . ! " ، ثم سميه محمدا.

وقد ولد عليه الصلاة والسلام عام الفيل.

ورأت أمه حين حملت به : أنه خرج منها نور رأت به قصور "بصرى" من أرض الشام .

ومات أبوه عبد الله ، وأمه حامل به .

ويقول حسان بن ثابت رضى الله عنه : والله إني لغلام ابن سبع سنين أو ثمان ، أعقل كل ما سمعت . . إذ سمعت يهوديا يصرخ بأعلى صوته على حصن بيثرب . المدينة . قائلا : يا معشر يهود . !! حتى إذا اجتمعوا إليه ، قالوا له : ويلك !! مالك ؟

---

[1] - انظر : ابن هشام . ز تهذيب سيرة ابن هشام ، لعبد السلام هارون ص 36.

قال : طلع الليلة نجم أحمد الذي ولد به .

ولما وضعته أمه عليه الصلاة والسلام : أرسلت إلى جده عبد المطلب : إنه قد ولد لك غلام ، فأته فانظر إليه ، فنظر إليه ، وحدثته بما رأت حين حملت به ، وما قيل لها فيه ، ومأأمرت به أن تسميه .

فيزعمون : أن عبد المطلب أخذه ، فدخل به الكعبة ، فقام يدعو الله ، ويشكر له ما أعطاه ، ثم خرج به إلى أمه ، فدفعه إليها .

* * *

الذكرى التاسعة

سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم

.

وهي ذكريات غالية : تتعلق بسيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم ، من بدء نشأته ، ونسبه الشريف ، وطهارته ، وأمانته ، ومكانته في قومه ، وبين عشيرته ، ثم بعثته ، وتحمله الأذى من أجل دعوته صلى الله عليه وسلم ، وإخراجه من مكة المكرمة "أحب بلاد الله إلى الله وأحب بلاد الله إليه" وهجرته إلى المدينة ، وتكون الدولة الإسلامية فيها ، وانطلاقها في تبليغ الدعوة منها ، وغزواته .

ثم عوده إلى مكة المكرمة فاتحا لها ، منتصرا على الباطل فيها ، وعفوه الكريم العام ، عمن آذوه ، وحاربوه ، وعاندوه ، وأخرجوه صلى الله عليه وسلم.

ويفيد في معايشة هذه الذكريات ، والإفادة منها ، والاهتداء بها ، مطالعة بعض الكتبة التالية : .

1. سيرة ابن هشام .
2. زاد المعاد في هدى خير العباد . لابن القيم .
3. سبل الهدى والرشاد .

4. الفصول في سيرة الرسول . لابن كثير.
5. عيون الأثر في المغازي والسير . لابن سيد الناس.
6. المغازي . للواقدي.
7. الرحيق المختوم . للمباركفوري.
8. المنهج الحركي للسيرة النبوية . د. منير الغضبان.
9. فقه السيرة . للبوطي.
10. الشفا بتعريف حقوق المصطفى . للقاضي عياض.

إضافة إلى كتب السنة الشريفة.

* * *

الذكرى العاشرة

حجة الوداع

.

وهي ذكرى حجته عليه الصلاة والسلام ، وهي المسماة بـ "حجة الوداع" ، وتفاصيلها مذكورة في كتب السنة التالية : .

1. صحيح البخاري . . كتاب الحج .
2. صحيح مسلم . . كتاب الحج ، باب : حجة النبي صلى الله عليه وسلم .
3. سنن أبي داود . . كتاب المناسك ، باب : صفة حجة النبي صلى الله عليه وسلم.
4. سنن الترمذي . . كتاب الحج .
5. سنن النسائي . . كتاب مناسك الحج.
6. سنن ابن ماجه . . كتاب المناسك ، باب حجة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وكذلك : تفاصيل مذكورة في كتب السيرة النبوية.

ونحن ننقل لك حرفيا ما كتبه العلامة : صفي الرحمن المباركفوري في كتابه القيم "الرحيق المختوم" تحت عنوان (حجة الوداع).

كتب يقول جزاه الله خيرا [1] :

تمت أعمال الدعوة ، وإبلاغ الرسالة ، وبناء مجتمع جديد على أساس إثبات الألوهية لله ، ونفيها عن غيره ، وعلى أساس رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وكأن هاتفا خفيا انبعث في قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يشعره أن مقامه في الدنيا قد أوشك على النهاية ، حتى إنه حين بعث معاذا على اليمن سنة 10هـ قال له فيما قال : يا معاذ ، إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا ، ولعلك أن تمر بمسجدي هذا وقبري ، فبكى معاذ خشعا لفراق رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وشاء الله أن يرى رسوله صلى الله عليه وسلم ثمار دعوته ، التي عانى في سبيلها ألوانا من المتاعب بضعا وعشرين عاما ، فيجتمع في أطراف مكة بأفراد قبائل العرب وممثليها ، فيأخذوا منه شرائع الدين وأحكامه ، ويأخذ منهم الشهادة على أنه أدى الأمانة ، وبلغ الرسالة ، ونصح الأمة .

أعلن النبي صلى الله عليه وسلم بقصده لهذه الحجة المبرورة المشهودة ، فقدم المدينة بشر كثير ، كلهم يلتمس أن يأتم برسول الله صلى الله عليه وسلم [2] . وفي يوم السبت لأربع بقين من ذي القعدة تهيأ النبي صلى الله عليه وسلم للرحيل [3] ، فترجل وادهن ولبس إزاره ورداءه وقلد بدنه ، وانطلق بعد الظهر ، حتى بلغ ذا الحليفة قبل أن يصلي العصر ، فصلاها ركعتين ، وبات هناك حتى أصبح ، فلما أصبح قال لأصحابه : أتاني الليلة آت من ربي فقال : صل في هذا الوادي المبارك ، وقل : عمرة في حجة [4].

وقبل أن يصلي الظهر اغتسل لإحرامه ، ثم طيبته عائشة بيدها في بدنه ورأسه ، حتى كان الطيب يرى في مفارقه ولحيته ، ثم استدامه ولم يغسله ، ثم لبس إزاره ورداءه ، ثم صلى الظهر ركعتين ، ثم أهل بالحج والعمرة في مصلاه

---

[1] - انظر : الرحيق المختوم ص 488 . 493.

[2] - روى ذلك مسلم عن جابر ، باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم .

[3] - حقق ذلك ابن حجر تحقيقا أنيقا ، مع تصحيح ما ورد من أنه خرج لخمس بقين من ذي القعدة ، انظر فتح الباري 104/8.

[4] - رواه البخاري عن عمر 207/1.

، وقرن بينهما ، ثم خرج ، فركب القصواء ، فأهل أيضا ، ثم أهل لما استقلت به على البيداء .

ثم واصل سيره حتى قرب من مكة ، فبات بذي طوى ، ثم دخل مكة بعد أن صلى الفجر واغتسل من صباح يوم الأحد لأربع ليال خلون من ذي الحجة سنة 10هـ . وقد قضى في الطريق ثمان ليال ، وهي المسافة الوسطى . فلما دخل المسجد الحرام طاف بالبيت ، وسعى بين الصفا والمروة ، ولم يحل ، لأنه كان قارنا قد ساق معه الهدى ، فنزل بأعلى مكة عند الحجون ، وأقام هناك ، ولم يعد إلى الطواف غير طواف الحج.

وأمر من لم يكن معه هدى من أصحابه أن يجعلوا إحرامهم عمرة ، فيطوفوا بالبيت وبين الصفا والمروة ، ثم يحلوا حلالا تاما ، فترددوا ، فقال : لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما أهديت ، ولولا أن معي الهدي لأحللت ، فحل من لم يكن معه هدى ، وسمعوا وأطاعوا .

وفي اليوم الثامن من ذي الحجة . وهو يوم التروية . توجه إلى منى ، فصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر . خمس صلوات . ثم مكث قليلا حتى طلعت الشمس ، فأجاز حتى أتى عرفة ، فوجد القبة قد ضربت له بنمرة ، فنزل بها ، حتى إذا زالت الشمس أمر بالقصواء فرحلت له ، فأتى بطن الوادي ، وقد اجتمع حوله مائة ألف وأربعة وعشرون أو أربعة وأربعون ألفا من الناس ، فقام فيهم خطيبا ، وألقى هذه الخطبة الجامعة :

أيها الناس ، اسمعوا قولي ، فإني لا أدري لعل لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبدا [1].

إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا . ألا كل شئ من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع ، ودماء الجاهلية موضوعة ، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث . وكان مسترضعا في بني سعد فقتلته هذيل . وربا الجاهلية موضوع ، وأول ربا أضع من ربانا ربا عباس بن عبد المطلب ، فإنه موضوع كله .

---

[1] - ابن هشام 603/2.

فاتقوا الله في النساء ، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه ، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربا غير مبرح ، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف.

وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به ، كتاب الله [1].

أيها الناس ، إنه لا نبي بعدي ، ولا أمة بعدي ، ألا فاعبدوا ربكم ، وصلوا خمسكم ، وصوموا شهركم ، وأدوا زكاة أموالكم ، طيبة بها أنفسكم ، وتحجون بيت ربكم ، وأطيعوا أولات أمركم ، تدخلوا جنة ربكم [2].

وأنتم تسألون عني ، فما أنتم قائلون ؟ قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت.

فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء ، وينكتها إلى الناس "اللهم اشهد". ثلاث مرات [3].

وكان الذي يصر في الناس بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهو بعرفة . ربيعة ابن أمية بن خلف [4].

وبعد أن فرغ النبي صلى الله عليه وسلم من إلقاء الخطبة نزل عليه قوله تعالى : { اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا} [المائدة : 3] وعندما سمعها عمر بكى ، فقيل له : ما يبكيك ؟ قال : إنه ليس بعد الكمال إلا النقصان [5].

وبعد الخطبة أذن بلال ثم أقام ، فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس الظهر ، ثم أقام فصلى العصر ، ولم يصل بينهما شيئا ، ثم ركب حتى أتى الموقف ، فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصخرات ، وجعل حبل المشاة بين يديه ، واستقبل القبلة ، فلم يزل واقفا حتى غربت الشمس ، وذهبت الصفرة قليلا حتى غاب القرص ، وأردف أسامة ، ودفع حتى أتى المزدلفة ،

---

[1] - صحيح مسلم باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم .

[2] - معدن الأعمال ، ورواه ابن ماجه وابن عساكر ، رحمة للعالمين 263/1.

[3] - مسلم .

[4] - ابن هشام 605/2

[5] - رواه البخاري عن ابن عمر . . انظر رحمة للعالمين 256/1.

فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين ، ولم يسبح بينهما شيئا ، ثم اضطجع حتى طلع الفجر ، فصلى الفجر حتى تبين له الصبح بأذان وإقامة ، ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام ، فاستقبل القبلة ، فدعاه ، وكبره ، وهلله ، ووحده ، فلم يزل واقفا حتى أسفر جدا.

فدفع ـ من المزدلفة إلى منى ـ قبل أن تطلع الشمس ، وأردف الفضل بن العباس حتى أتى بطن محسر ، فحرك قليلا ، ثم سلك الطريق الوسطى التي تخرج على الجمرة الكبرى ، حتى أتى الجمرة التي عند الشجرة ـ وهي الجمرة الكبرى نفسها ، كانت عندها شجرة في ذلك الزمان ، وتسمى بجمرة العقبة وبالجمرة الأولى ـ فرماها بسبع حصيات ، يكبر مع كل حصاة منها ، مثل حصى الخذف رمى من بطن الوادي ، ثم انصرف إلى المنحر ، فنحر ثلاثا وستين بدنة بيده ، ثم أعطى عليا فنحر ما غير ـ وهي سبع وثلاثون بدنة ، تمام المائة ـ وأشركه في هديه ، ثم أمر من كل بدنة ببضعة ، فجعلت في قدر ، فطبخت ، فأكلا من لحمها ، وشربا من مرقها.

ثم ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأفاض إلى البيت ، فصلى بمكة الظهر ، فأتى على بني عبد المطلب يسقون على زمزم ، فقال : انزعوا بني عبد المطلب فلولا أن يغلبكم الناس على سقايتكم لنزعت معكم ، فناولوه دلوا فشرب منه [1].

وخطب النبي صلى الله عليه وسلم يوم النحر ـ عاشر ذي الحجة ـ أيضا حين ارتفع الضحى ، وهو على بغلة شهباء ، وعلى يعبر عنه ، والناس بين قائم وقاعد [2] . وأعاد في خطبته هذه بعض ما كان ألقاه أمس ، فقد روى الشيخان عن أبي بكر قال : خطبنا النبي صلى الله عليه وسلم يوم النحر ، قال :

---

[1] - رواه مسلم عن جابر ، باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم

[2] - روى ذلك أبو داود ، باب أي وقت يخطب يوم النحر.

" إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السماوات والأرض ، السنة اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم ، ثلاث متواليات ، ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ورجب مضر الذي بين جمادي وشعبان".

وقال : " أي شهر هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، قال : أليس ذا الحجة ؟ قلنا : بلى . قال : أي بلد هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، قال : أليست البلدة ؟ قلنا : بلى . فأي يوم هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، قال : أليس يوم النحر ؟ قلنا : بلى. قال : فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا ، في شهركم هذا".

" وستلقون ربكم ، فيسألكم عن أعمالكم ، ألا فلا ترجعوا بعدي ضلالا يضرب بعضكم رقاب بعض " .

" ألا هل بلغت ؟ قالوا : نعم ، قال : الله أشهد ، فليبلغ الشاهد الغائب فرب مبلغ أوعى من سامع" [1].

وفي رواية أنه قال في تلك الخطبة : " ألا لا يجني جان إلا على نفسه ، ألا يجني جان على ولده ، ولا مولود على والده ، ألا إن الشيطان قد يئس أن يعبد في بلدكم هذا أبدا ، ولكن ستكون له طاعة فيما تحتقرون من أعمالكم ، فسيرضى به" [2].

وأقام أيام التشريق بمنى يؤدي المناسك ويعلم الشرائع ، ويذكر الله ، ويقيم سنن الهدى من ملة إبراهيم ، ويمحو آثار الشرك ومعالمها ، وقد خطب في بعض أيام التشريق أيضا ، فقد روى أبو داود بإسناد حسن عن سراء بنت نبهان قالت : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الرءوس ، فقال :

---

[1] - صحيح البخاري ، باب الخطبة أيام منى .

[2] - رواه الترمذي ، وابن ماجه في الحج.

أليس هذا أوسط أيام التشريق [1] . وكانت خطبته في هذا اليوم مثل خطبته يوم النحر ، ووقعت هذه الخطبة عقب نزول سورة النصر.

وفي يوم النفر الثاني . الثالث عشر من ذي الحجة . نفر النبي صلى الله عليه وسلم من منى ، فنزل بخيف بني كنانة من الأبطح ، وأقام هناك بقية يومه ذلك ، وليلته ، وصلى هناك الظهر والعصر والمغرب والعشاء ، ثم رقد رقدة ، ثم ركب إلى البيت ، فطاف به طواف الوداع .

ولما قضى مناسكه حث الركاب إلى المدينة المطهرة ، لا ليأخذ حظا من الراحة ، بل ليستأنف الكفاح والكدح لله وفي سبيل الله [2].

*** * ***

*** * ****

---

[1] - أبو داود ، باب أي يوم يخطب بمنى.

[2] - انظر لتفصيل حجة النبي صلى الله عليه وسلم صحيح البخاري كتاب المناسك ، وصحيح مسلم باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم وفتح الباري ج 3 من شرح كتاب المناسك وج 8 / 103 إلى 110 وابن هشام 601/2 إلى 605 ، زاد المعاد 196/1 ، 218 إلى 240.

الفصل الثالث

نتائج مرجوه

-

- تمهيد.
- تحديد الهدف.
- الطريق الموصل إلى الهدف.
- وسائل المحافظة على الهدف.

* * *

أخي المسلم . . !!

أختي المسلمة . . !!

الآن كل منا ـ يرجو أن يعود بفضل الله تعالى ـ سالما غانما ، خالصا من ذنوبه كيوم ولدته أمه بإذن الله تعالى.

فهل يضمن أحدنا . . أن يعيش ـ أطال الله أعماركم جميعا بالصحة والعمل الصالح ـ حتى تتاح له هذه الفرصة . . مرة أخرى . . ؟

وهل يقبل أحدنا ـ بعد هذه الطهارة والصفاء والرضا الذي يضرع إلى الله في أن يصل إليه ـ أن يلوث نفسه بالمعاصي والذنوب .. مرة أخرى . . ؟

وهل يعجز أحدنا . . أن يظل محافظا على ما يصل إليه .. من إخلاص في الطاعة ، وصدق في العبادة ، وحسن في الخلق ، ووضوح في المعاملة..؟

وهل يرضى أحدنا . . أن يعود عبدا لشهواته المحرمة، أسيرا لنزواته الآثمة ضعيفا أم نفسه الأمارة بالسوء ، راضيا بوساوس الشيطان له . . ؟

وهل يظل أحدنا . . يمارس عباداته على أنها عادات فقط ، دون أن يغير نفسه ، ويصلح حاله ، حتى يأخذ الله بيده دوما إلى ساحة رضوانه . . خاصة : إذ كان يعلم علم اليقين . . أن { الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم } [الرعد :11] . . ؟

أعتقد أن إجابة المرء العاقل على هذه التساؤلات . . هي : لا . . وألف لا . . !!

إذا . . كيف نحافظ على ما ينعم الله علينا به . . ؟

خاصة : وأن الحياة شواغل ، والشواغل ملهيات . . !!

كما أن المرء ضعيف أمام هذه الملهيات ، وهو بطبعه خطاء ، وميال إلى الشهوات . . !!

*** * ***

تعالوا بنا أيها الأحبة يف الله نجيب على هذا السؤال ، ونحن نضرع إلى الله تعالى أن يعيننا على طاعته ، وأن لا يبعدنا عن ساحته ، وأن يجعلنا من عباده الصالحين المصلحين وأن يعيننا على حسن أداء هذه الفريضة .

وإجابتنا من خلال هذه النقاط الثلاث : .

أولا : لابد من تحديد الهدف .

ثانيا : معرفة الطريق الموصل إليه .

ثالثا : المحاظة على الهدف بعد الوصول إليه .

*** * ***

أولا : الهدف

.

والهدف الذي أبتغيه ، ويرجوه كل مسلم يطمح إلى نوال مرضاة الله تعالى قبل أداء فريضة الحج ، وأثناء وبعد أداء فريضة الحج . . هو أن يكون :

1. **صحيح العقيدة**

حيث لا يخالط إيمانه بالله دخل ، ولا غبش ، ولا أية صورة من صور الشرك ، أو أية نزعة من نزعات الرياء وحب السمعة.

حتى يكون مخلصا لله تعالى في كل أعماله وأقواله ، { قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين * لا شريك له } [الأنعام : 162 ، 163].

لا يعتمد إلا عليه ، ولا يلجأ إلا إليه سبحانه ، ولا يلوذ إلا به ، ولا يخاف إلا منه ، ولا يسأل إلا إياه ، ولا يثق إلا في عدله .

" إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على صعيد واحد . . لينفعوك : لن ينفعوك إلا بما كتب الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك : لن يضروك إلا بما كتب الله عليك" [روى مثله : أحمد في المسند] .

أخي المسلم . .

الرزق بيد الله سبحانه ، لا يملكه غيره { هو الرزاق ذو القوة المتين } [الذاريات : 58] هو مضمون مضمون { وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها } [هود : 6] .

فلم إذا . . أضيع حياتي وعبادتي من أجله . . ؟

فاكتسبه من حرام ؟ أو أنفقه في حرام ؟ أو اكتنزه على وجه حرام . . ؟

وكذلك العمر بيده سبحانه ، لا يملكه غيره { وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون } [البقرة : 28] لا ينقصه من دون أمره أحد{ وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب إن ذلك على الله يسير}[فاطر:11] هو محدود محدود { لكل أجل كتاب} [الرعد 38].

فلم إذا أضيع حياتي وعباداتي خوفا عليه . . ؟

وأعيش ذليلا للعبيد . . ؟ راضيا بالهوان . . ؟ لا أساعد الضعفاء ، ولا أناصر المظلومين ، ولا أطيع رب العالمين . . ؟

عموما . .

لابد أن أراجع دوما عقيدتي . .

من جهة إيماني بالله عز وجل ، وضرورة تحقيق هذا الإيمان ، قولا وعملا للوصول إلى مرضاة الله .

ومن جهة إيماني برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وضرورة متابعته ، للوصول إلى مرضاة الله { قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم } [آل عمران : 31] .

ومن جهة . .

ومن جهة . .

ومن جميع الجهات . .

2. متين الخلق :

والخلق الحسن : ثمرة من ثمار صحة العقيدة ، ونتيجة من نتائج صدق الإيمان ، وعلامة من علامات المؤمنين .

وإن أثقل شئ في ميزان العبد يوم القيامة : حسن الخلق.

والطريق الموصل إلى اكتساب حسن الخلق ، هو : تلاوة القرآن ، والصلاة ، واللبث في المساجد ، وحلق الذكر ، وتهجد الثلث الأخير من الليل ، وزيارة القبور ، ومجالس العلم .

ومن لم تحلق به روحه ، وتحسن له خلقه . . إذ هو على حصيرة المسجد البالية : فلن يطير به بساط السندباد .

ومجال التدريب في حسن الخلق : يكون بين الناس ، لا في اعتزالهم ، بالصبر عليهم ، والإحسان إليهم ، وتحمل ضعفهم ، وحملهم على الخير حملا ، وإرشادهم إلى الطاعة نصحا حكيما .

وأولى الناس بالتدريب على حسن الخلق معهم : أهلك وذووك " خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي" [ابن ماجه . . كتاب النكاح ، الدارمي . . كتاب النكاح] .

ولن يكون المرء مسلما نافعا . . حتى يكون قدوة . .

ولن يكون قدوة . . حتى يهتم بتزكية نفسه ، وتطهيرها ، ومتابعتها باكتساب الفضائل ، والتخلي عن الرذائل.

وإذا ما حدث : تأثر به الغير ، وأحب فعل الخير تقليدا له ، وضم ـ بالتالي ـ مثل حسناتهم إلى حسناته " ومن سن سنة في الإسلام حسنة : فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة " [مسلم . . كتاب العلم ، النسائي . . كتاب الزكاة ، وأحمد في المسند] .

وحسن الخلق : يكون قبل أداء فريضة الحج ، وخلال أداء فريضة الحج ، وبعد أداء فريضة الحج . . بمعنى : أن يكون حسن الخلق في المرء عادة وعبادة ، فلا يتخلى عنه لأي سبب ، ولا تحت أي ظرف.

3. سليم العبادة : ـ

وسلامة العبادة . . تعني : أداءها كاملة غير منقوصة ، صحيحة غير مغشوشة.

ولا يكون ذلك : إلا يفهم المسلم لحقيقة العبادة ، وعدم حصرها في بضع ركعات يؤديها ، أو في أموال ـ قلت أو كثرت ـ يدفعها . . إلى غير ذلك من الشعائر.

بل العبادة الحقة : أن تكون في معية الله دائما ، متوجها له بكل عمل تؤديه ، مراقبا له في كل أمر تمارسه ، تبحث بجد عما يرضيه ، تبتعد بصدق عما يغضبه.

العبادة الحقة : هي التي يكون رائدك الإخلاص فيها لله رب العالمين ، بعيدا بها عن رياء الخلق ، غير طالب بها الشهرة عند الناس ، أو المحمدة منهم.

العبادة الحقة : هي التي تكون فيها ، وبها موافقا لشرع الله تعالى ، بالصورة التي أنزلها الله ، وبالكيفية التي بينها رسوله صلى الله عليه وسلم .

يقول تعالى : { ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن } [النساء : 125].

ويقول تعالى : { ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى } [لقمان : 22] .

وعلى ذلك . . فالعبادة ، تشمل [1] :

---

[1] - د/ يوسف القرضاوي. . العبادة في الإسلام ص 49 وما بعدها (بتصرف واختصار).

(أ) الدين كله . . حيث إنها اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة .

فالصلاة ، والزكاة ، وصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، والإحسان للجار ، والعطف على اليتيم والمسكين ، والدعاء والذكر والقراءة . وحب الله وخشيته ، والشكر على نعمه ، والرضا بقضائه ، والتوكل عليه . . وغير ذلك .

(ب) الحياة كلها . . من أدب الأكل والشرب ، وقضاء الحاجة ، إلى بناء الدولة ، وسياسة الحكم ، وسياسة المال ، وأصول العلاقات الدولية في السلم والحرب . . الخ .

(ج) الكيان الإنساني كله . . حيث إن كل عمل اجتماعي نافع . . يعده الإسلام : عبادة من أفضل العبادات ، ما دام قصد فاعله الخير ، لا تصيد الثناء ، واكتساب السمعة الزائفة عند الناس . . كل عمل يمسح به الإنسان دمعة محزون، أو يخفف به كربة مكروب ، أو يضمد به جراح منكوب ، أو يسد به رمق محروم ، أو يشد به أزر مظلوم ، أو يأخذ بيد فقير متعفف ذي عيال ، أو يهدي حائرا ، أن يعلم جاهلا ، أو يؤوي غريبا ، أو يدفع شرا عن مخلوق ، أو يحط أذى عن طريق ، أو يسوق نفعا لذي كبد رطبة . . كل ذلك : عبادة ، وقربة إلى الله تعالى إذا صحت النية .

وبهذا . . يتضح لنا حقيقة مهمة ، لا زال يجهلها الكثير من المسلمين هي : أن بعض الناس لا يفهم من كلمة (العبادة) إذا ذكرت : إلا الصلاة والصيام والصدقة ، والحج والعمرة ، ونحو ذلك من الأذكار والأدعية ، ولا يحسب أن لها علاقة بالأخلاق والآداب أو النظم والقوانين .

إن عبادة الله : ليست محصورة إذن في الصلاة والصيام والحج ، وما يلحق بها من التلاوة والذكر والدعاء والاستغفار ، كما يتبادر إلى فهم كثير من المسلمين إذا دعوا إلى عبادة الله ، وكما يحسب كثير من المتدينين أنهم إذا قاموا بهذه الشعائر : فقد وفوا الإلهية حقها ، وقاموا بواجب العبودية لله كاملا.

إن هذه الشعائر العظيمة والأركان الأساسية في بناء الإسلام ، على منزلتها وأهميتها : إنما هي جزء من العبادة ، وليست هي كل العبادة التي يريدها الله من عباده .

والحق : أن دائرة العبادة التي خلق الله الإنسان لها ، وجعلها غايته من الحياة . . دائرة رحبة واسعة .

وبهذا نفهم قوله تعالى { وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون } [الذاريات :56].

4. حسن المعاملة : .

حيث إن "الدين المعاملة " .

والمعاملة الحسنة : هي ثمرة العقيدة الصحيحة ، والعبادة السليمة .

والمولى عز وجل لم يترك عباده يتيهون في حقول التجارب بحثا عن طرق جيدة لمعاملات تريحهم في الدنيا ، وتسعدهم في الآخرة.

بل : وضح لهم هذه المعاملات ، وجعلها في صورة تشريع ، يثابون على الالتزام به ، والتطبيق له .

سواء كان ذلك . . في جانب المعاملات الاجتماعية . . كما في قوله تعالى {يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون (27) فإن لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم } (النور:27 . 29].

أو في جانب المعاملات الحربية . . كما في قوله تعالى { وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين (58) ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا إنهم لا يعجزون (59) وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم .. } [الأنفال : 58 . 60].

أو في جانب المعاملات المالية . . كما في قوله تعالى { يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب

كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذي عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئا فإن كان الذي عليه الحق سفيها أو ضعيفا أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا ولا تسأموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا إلى أجله ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها وأشهدوا إذا تبايعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شئ عليم}[البقرة :282].

وسواء كان ذلك أيضا . . بين الأفراد وبعضهم البعض . . كما في قوله تعالى { يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون (11) يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم } [الحجرات : 11 ، 12].

أو بين الجماعات وبعضهم البعض . . كما في قوله تعالى{وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفئ إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين(9)إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون} [الحجرات : 9، 10].

وسواء كان ذلك . . بين المؤمنين وبعضهم البعض . . كما في قوله تعالى {والمؤمنين والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم } [التوبة :71].

وكما في الحديث الشريف " مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر".

أو بين المؤمنين وغيرهم . . كما في قوله تعالى { يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين (51) فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين } [المائدة : 51 ، 52].

وسواء كان ذلك . . على المستوى الفردي . . كما في الحديث الشريف "آيات المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذ أؤتمن خان" .

وفي رواية " إذا عاهد : غدر"[رواه : البخاري ومسلم والترمذي . . كتاب الإيمان] .

أو على المستوى الجماعي { ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير(112) ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون} [هود : 112 ، 113] .

إلى غير ذلك . . مما تميز به الإسلام وانفرد ، في جانب المعاملات الإنسانية ، أفرادا ، وجماعات وشعوبا وحكومات .

* * *

ثانيا : معرفة الطريق الموصل إلى الهدف

-

وهذا الطريق الذي يوصلني إلى هذا الهدف : هو تحقيق إسلامي في عالم الواقع ودنيا الناس .

ولكن : كيف أحقق إسلامي . . ؟

هذا ما تجيب عنه وتوضحه السطور التالية ؛ بإذن الله تعالى .

لابد لمن يريد أن يحقق إسلامه ، في الواقع ، وأن يتحقق هو به في نفسه من اتباع الأمور التالية :

الأمر الأول : أن يعرف دينه معرفة تحقق له . . حسن الاتباع له ، والانتفاع به.

ويكفيه في ذلك : معرفة أصول الدين ، التي تحقق له ويحقق بها ما يصحح له عقيدته ، ويحسن خلقه ، ويصوب عبادته ، ويهذب معاملاته ، على ضوء ما أشرنا إليه فيما سبق ، دون تكليف له بمعرفة الفروع ، أو دقيق القضايا .

ويوصله إلى ذلك : حضور دروس العلم قدر استطاعته ، قراءة بعض الكتب الميسرة ، سؤال أهل العلم الثقات عما يستشكل عليه من الأمور . . هذا : والحلال بين والحرام بين . من فضل الله تعالى . لمن يرغب الوصول .

الأمر الثاني : أن يعرف أعداء دينه ودعوته . . وهم كثر ، ولكنهم معروفون ، في مثل قوله تعالى { إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا}[فاطر :6] وقوله تعالى { فتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا } [المائدة:82].

والغرض من هذه المعرفة . . أن يعرف مخططاتهم ضده وضد دعوته ، فيستعد لمواجهتها ، وإحباطها بما يستطيع ، وإنقاذ نفسه وأمته ودعوته من أضرارها.

الأمر الثالث : أن يعرف لم خلقه الله تعالى .. ؟

حيث إنه لم يخلق عبثا ، ولم يخلق ليأكل ويشرب ، ولم يخلق لممارسة الشهوات والملذات . . !! ولم . . ولم . . إلخ ، فقط .

بل خلق لغاية وعلة . . !!

هذه الغاية . . حار الفلاسفة في معرفتها وضلوا ، ولم يبينها سوى القرآن الكريم .

إذ بين الله تعالى أن الإنسان مخلوق لغاية سامية ، ذكرها في قوله تعالى {وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون } [الذاريات :56] .

ولمعرفة هذه العبادة : لابد من مراجعة ما كتبناه في النقطة السابقة من هذا الفصل.

الأمر الرابع : أن يعرف منزلة الدنيا . التي يحيا فيها ، وقد يتصارع مع غيره فيها من أجلها . من الآخرة ، التي هو صائر إليها لا محالة ، ومقيم بها ،

والتي نبه الله تعالى إلى غفلتنا عنها في مثل قوله تعالى { بل تؤثرون الحياة الدنيا (16) والآخرة خير وأبقى } [الأعلى : 16 ، 17] .

معرفة تجعله : يمتلك الدنيا دون أن تمتلكه ، حيث إنها كما يقول أبو الدرداء رضى الله عنه : " دار من لا دار له ، ومال من لا مال له ، ولها يجمع من لا عقل له " ، فلا تنسيه ، ولا تطغيه ، ولا تكون . بصفة عامة طريقه إلى جهتهم والعياذ بالله.

معرفة تجعله : يستعد للآخرة بالعمل الصالح ، الذي يسعد به العباد ، ويصلح به البلاد .

الأمر الخامس : أن يعرف حتمية الموت لكل حي ، وأنه مهما طال عمره لابد أن يأتيه الأجل { كل نفس ذائقة الموت } [آل عمران : 185 ، الأنبياء :35 ، العنكبوت :57] و { لكل أجل كتاب } [الرعد : 38] وموعد ، لا خلف فيه ، ولا تغيير له .

وبعد الموت : يكون وحيدا ، فريدا ، غريبا ، لا أنيس ولا جليس ، لا مال ، ولا جاه . . في قبر : مظلم ، بارد ، موحش ، تملؤه الهوام ، ويسرح فيه الدود .

هذا القبر : إما روضة من رياض الجنة . كما أخبر المصطفى صلى الله عليه وسلم . . أو حفرة من حفر النار .

ولك الآن الخيار . . !!

الأمر السادس : أن تعمل بالإسلام .

أي : تعمل بأحكامه وتعاليمه ، وتلتزم بآدابه وتشريعاته ، فتتحرى الحلال وتبتعد عن الحرام ، تؤدي فرائض الله ، وتتجنب منهياته ، أن تقيس كل أعمالك بميزان الشرع : فما وافق . . قمت له ، وأتممته ؛ طاعة لله ، وما خالف . . تركته ، ونبذته ؛ طاعة لله .

أن تفاخر بانتسابك إلى هذا الدين ، الذي أنعم الله عليك به ، ورضيه لك {اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا } [المائدة : 3].

الأمر السابع : أن تعمل للإسلام .

أي : تعمل لصالح هذا الدين ، بحثا عما يرفع رايته ، وينشر دعوته ، ويعلي كلمته في العالمين ، بيدك ، أو بمالك ، أو بقلمك ، أو بلسانك ، أو بالتزامك ، أو بأي وسيلة تراها محققة لهذا الغرض.

الأمر الثاني : أن تعمل لصالح المسلمين .

أي : لا تنعزل عن أفراد أمتك ، ولا عن جماعاتها ، بل عليك أن تبحث عن أمور المسلمين ، وأن تعرف أحوالهم ، وأن تشاركهم أفراحهم ، وأن تقاسمهم أحزانهم.

حيث إن المسلمين ـ كما يقول الحبيب صلى الله عليه وسلم ـ " مثلهم ؛ كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو : تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى" [الشيخان].

وما أنت ـ أخي المسلم ، وأختي المسلمة ، إلا عضو من هذا الجسد . . فكن عضوا نافعا لجميع أعضاء هذا الجسد العظيم .

ساعد ضعيفهم ، ناصر مظلومهم ، علم جاهلهم ، واس حزينهم ، هنيئ سعيدهم، اعطف على صغيرهم ، احترم كبيرهم . . الخ.

ولكن . . قبل كل ذلك : ابدأ بدائرتك الصغيرة ، التي تحيا فيها ، وهم أسرتك . . زوجك ، وأولادك . . كن بهم بارا ، وعليهم عطوفا ، ولمصالحهم مؤديا . . كل ذلك بما يرضى الله تعالى.

ثم . . صل رحمك . . والديك ، أقاربك { يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين } [البقرة : 215].

ثم . . وسع دائرة اهتمامك ، حتى تشمل الأمة كلها ؛ فيتحقق فيها ومنها ولها { وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان }[المائدة :2].

وبهذا وغيره :

تقوى الأمة ، وتتحقق فيها الخيرية { كنتم خير أمة أخرجت للناس } [آل عمران : 110].

وتتحقق لها الريادة والزعامة { وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس } [البقرة :143].

* * *

ثالثا : المحافظة على الهدف بعد الوصول إليه

.

يقولون : من السهل النجاح ، ولكن ليس من السهل المحافظة على هذا النجاح.

ولذلك : فإن المحافظة على الهدف الذي حددناه ، وجاهدنا في الوصول إليه . . أمر يحتاج إلى متابعة ، كما يحتاج إلى بذل الجهود.

وهذا : يتم ـ بعون الله تعالى ـ وفق الخطوات التالية [1] :

1. المراقبة :

يعني : مراقبة الإنسان لنفسه ، ومتابعتها ، في تحديد الهدف الذي يريد تحقيقه ، وفي سلوك الطريق الموصل لتحقيق هذا الهدف ، وفي كيفية المحافظة عليه بعد تحقيقه ، والوصول إليه .

وهذه المراقبة: هي من صميم الطاعة ، والعمل لمرضاة الله سبحانه وتعالى.

حيث إنه : كلما وجد نفسه . . متكسلا عن تذاكير نفسه بهذا الهدف العظيم ، الذي وضعه لنفسه ، أو متكاسلا عن سلوك الطريق الموصل إليه ، ساندته هذه المراقبة ، التي يرضى الله بها ، والتي تعينه على المحافظة على ما وصل إليه من خير وفضل عظيم .

وينبغي على المسلم ، والمسلمة : أن يجعل كل واحد منهما هذه المراقبة لنفسه ، ديدنه ، وعادته ، سواء أكانت هذه المراقبة فيما يفعل ، أم فيما يترك .

وليعلم جيدا . . إنه إذا نجح في هذه المراقبة : فقد وصل أو اقترب من درجة الإحسان ، التي ذكرها المصطفى صلى الله عليه وسلم " أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه : فإنه يراك " [متفق عليه] .

ومن منا لا يريد ذلك ؟ !!

2. المحاسبة :

---

[1] - انظر : مشروع برنامج لإصلاح النفس للمؤلف.

يعني : محاسبة الإنسان نفسه كل فترة . . عن حاله ، وأين هو من هدفه ، الذي حدده لنفسه ، وأسلوب الوصول إليه ، وخطوات المحافظة عليه ؟

والعاقل : من حاسب نفسه قبل أن يحاسب ، ومن حاسب نفسه الآن : نجا من أهوال الحساب يوم الحساب ، وكلما كثرت محاسبة الإنسان لنفسه : قلت عيوبه وكثرت ميزاته ونجحت خططه في تحقيق غرضه .

ولذلك : كان عمر رضى الله عنه ، يقول : " حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوها قبل أن توزنوا ، وتهيؤا للعرض { يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية } [الحاقة : 18] والقرآن الكريم : نبه إلى ضرورة هذه المحاسبة للنفس في الدنيا ، من باب نشدان الكمال ، وإصلاح النفس ، وللتدريب على مواجهة مشقات الحساب قبل يوم الحساب ؛ حيث يقول : { يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد } [الحشر : 18].

ولذلك : على المسلم العاقل . . أن يحاسب نفسه في كل فترة زمنية متسائلا مع نفسه . .

هل : حقق الهدف المنشود . . ؟

هل : ما زال يسلك الطريق إليه . . ؟

هل : يحافظ على هذا الهدف بعد أن وصل إليه ؟

هل : هو يفعل كل ذلك طاعة لله تعالى ؟

وهذه التساؤلات ، وهذه المحاسبات : أمر طبيعي وضروري ، لإنقاذ نفسه أولا . كما أشرنا . من أهوال الحساب في يوم الحساب ، الذي يكون على كل شئ . . الصغير والكبير ، الحقير والخطير { وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله } [البقرة :284] ، ثم للنجاح في الحفاظ على كل خير وصل إليه .

3. المجاهدة :

يعني : إجهاد النفس ، ودفعها إلى بذل الجهد ، وتحمل المشاق .

ونقصد بذلك : مجاهدة النفس ، وبذلها غاية الاستطاعة في الوصول إلى المطلوب مما ذكرناه .

ونحن نعرف جيدا : أن هذه المجاهدة ، ليست بالأمر الهين ، إذ عليها نجاح الموضوع ، ونوال الخير كله .

وبدونها : يبدأ التراخي ، ثم الإهمال ، ثم النسيان ، ثم الدوران في دوامة الصراع بين العقل من جهة ، وبين الشهوات والغرائز في الإنسان من جهة أخرى.

ولذلك : هذه المجاهدة ـ في الوصول إلى الهدف ، وفي الحفاظ على الهدف بعد الوصول إليه ـ تحتاج إلى مجاهدة .

وتنفيذ ذلك ، صعب صعب.

ولكن ـ كما يقولون ـ على قدر أهل العزم : تأتي العزائم ، وعلى قدر الغاية ونبلها : تهون المسائل.

ثم . . أليست الحياة كلها عناء وتعب . . ؟

فليكن عناؤنا . . ونحن نطيع الله تعالى ، في أمر يعين على طاعة الله ، أو على الأقل : نلقى الله تعالى . . ونحن نحاول أن نطيعه .

كما أن الله عز وجل : لا يخيب من قصده أبدا .

حيث يقول : { والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين } [العنكبوت :69].

ألستم معي في ذلك . . يا حجاج بيت الله الكرام . . . ؟

أعانني الله وإياكم على كل خير يرضاه المولى سبحانه وتعالى .

هذا . .

وبعد توضيح كل ما سبق . . تعالوا بنا إلى مناسك الحج وأعماله .

ندعو الله أن يعيننا فيها ، وأن يتقبل منا ومنكم .

*** * * ***

الفصل الرابع

مناسك الحج والعمرة

* بعض المعلومات الهامة .
* كيفية الحج والعمرة .

* * *

أولا : بعض المعلومات الهامة.

-

* الفرق بين الحج والعمرة.
* أنواع الإحرام.
* تكرار العمرة.
* في فضائل الحج والعمرة.
* تقبيل الحجر الأسود . . إلخ .
* زيارة قبر المصطفى والمسجد النبوي الشريف.

* * *

الفرق بين الحج والعمرة

-

العمرة والحج إلى بيت الله الحرام فرض عين في العمر مرة واحدة لقوله تعالى : { وأتموا الحج والعمرة لله } [البقرة :196].

ولكل واحد منهما : أركان ، وواجبات ، وشروط ، وسنن ، ومحظورات.

والذي يعنينا هنا : بيان الفرق بينهما من حيث الأركان.

فأركان العمرة : ثلاثة وهي :

أ . الإحرام .

ب . الطواف بالبيت .

ج . السعي بين الصفا والمروة .

وأركان الحج : أيضا أربعة ، هي :

أ . الإحرام .

ب . الوقوف بعرفة.

ج . طواف الإفاضة.

د . السعي بين الصفا والمروة .

* * * *

أنواع الإحرام

-

وأنواع الإحرام : ثلاثة :

أحدها : أن ينوي أداء فريضة الحج فقط ، وهذا هو (الإفراد) أي : أداء الحج وحده منفردا.

ثانيها : أن ينوي أداء العمرة والحج بإحرام واحد ، دون أن يتحلل من إحرامه بينهما ، وهذا هو (القران) أي : أداء العمرة والحج متصلتين بإحرام واحد.

ثالثها : أن ينوي أداء العمرة أولا ، ثم يتحلل من إحرامه ، ويتمتع بما كان محظورا عليه في الإحرام ، ثم يحرم مرة أخرة للحج ، ويؤديه ، وهذا هو (التمتع) أي : أداء كل واحدة منهما منفصلة عن الأخرى ، بما يتيح له أن يتمتع بينهما بما يحظر عليه حال إحرامه .

وفي أفضلية أي واحد من هذه الثلاثة : أقوال للعلماء كثيرة .

ومن المعلوم : أنه يباح للمرء اختيار أي واحد من هذه الثلاثة ، بما يناسبه ، وتستريح إليه نفسه .

وفي كل واحد من هذه الثلاثة : خير كثير.

غير أنه إذا اختار (القران) أو (التمتع) ولم يكن من أهل مكة : فعليه . . {ما استيسر من الهدي } جملا ، أو بقرة ، أو شاة ، يذبح شكرا لله تعالى ، فإذا لم يجد : فعليه صيام عشرة أيام ، ثلاثة منها في الحج ، وسبعة عندما يعود إلى بلده.

ومن المعلوم أيضا [1] : أن من أحرم من غير أن يعين نوعا من هذه الثلاثة ـ لعدم معرفته بهذا التفصيل ـ جاز ، وصح حجه .

---

[1] - سيد سابق . . فقه السنة 633/2.

ومن المهم . . أن يتذكر المسلم وهو يرتدي ملابس الإحرام : أنه يخالف بذلك عادته في الزي والهيئة ، وهو مقبل على حج بيت الله ، كما سيخالف به في الزي والهيئة بعد موته .

فليكثر من الطاعات ، والتوبة ، وليعزم على إصلاح نفسه من الآن . . وبعد العودة بإذن الله تعالى .

** * *

تكرار العمرة

-

يندب الإكثار من العمرة ، ويتأكد ندب التكرار في شهر رمضان على وجه الخصوص .

فقد وردت أحاديث عديدة تفيد ذلك .

كما ورد أن كبار الصحابة رضوان الله عليهم : كانوا يفعلون ذلك .

فقد روى ابن ماجه والإمام أحمد عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " عمرة في رمضان تعدل حجة معي" أي : ثوابها يعدل ثواب حجة غير مفروضة ، حيث إن أداءها لا يسقط أداء حجة الفريضة.

كما روى البخاري ومسلم وأحمد عن أبي هريرة رضى الله عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما ، والحج المبرور . . ليس له ثواب إلا الجنة " .

وروى الترمذي . وصححه . والنسائي ، عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " تابعوا بين الحج والعمرة ؛ فإنهما ينفيان الفقر والذنوب ، كما ينفي الكير خبث الحديد والذهب والفضة ، وليس للحجة المبرورة ثواب إلا الجنة " .

هذا . . وفيما رواه ابن عباس ، رضى الله عنهما ، وأخرجه أبو داود وابن ماجه ، وأحمد بسند رجاله ثقات : أن النبي صلى الله عليه وسلم . . اعتمر أربع

مرات : عمرة الحديبية ، وعمرة القضاء ، والثالثة من الجعرانة ، والرابعة مع حجته" صلى الله عليه وسلم .

وقال نافع : اعتمر عبد الله بن عمر ، رضى الله عنهما ، أعواما في عهد ابن الزبير ، عمرتين في كل عام .

وقال القاسم : إن عائشة رضى الله عنها . . اعتمرت في سنة ثلاث مرات ، فسئل : هل عاب ذلك عليها أحد . .؟

قال : سبحان الله . . !! أم المؤمنين !!؟

وإلى هذا ذهب أكثر أهل العلم [1].

ولكن مالك رحمه الله : يكره تكرارها في العام أكثر من مرة .

وعلى هذا : فالمرء مخير بين أن يأخذ برأي أكثر أهل العلم في تكرار العمرة ، أو يأخذ برأي الإمام مالك ، ولا حرج في هذا ، ولا حرج في ذلك ، وهو مثاب . بإذن الله تعالى . في هذا وفي ذاك .

كما أن الذي يختار التكرار : إما أن يفعل ذلك في سفرة واحدة ، حيث يؤدي العمرة ، ثم يتحلل ، وبعد ذلك يخرج إلى الحل ويحرم بعمرة جديدة ، وهكذا .

أو يعود إلى بلده بعد أداء العمرة ، ثم يعود مرة أخرى لأداء عمرة جديدة ، وهكذا .

ولا حرج في هذا ، ولا حرج في ذاك ، وهو مثاب . بإذن الله تعالى . في هذا وفي ذاك .

* * * *

في فضل الحج والعمرة

-

وفي ذلك رويت أحاديث وآثار كثيرة ، نذكر بعضها فيما يلي :

أ . فهو أفضل الأعمال :

---

[1] - سيد سابق ..فقة السنة 555/1

فعن أبـي هريـرة أنـه قـال : سـئل رسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم . . أي الأعمال أفضل . . ؟

قال : إيمان بالله ورسوله.

قيل : ثم ماذا ؟

قال : ثم جهاد في سبيل الله .

قيل : ثم ماذا ؟

قال : حج مبرور .

ب . وهو يمحق الذنوب :

روى البخاري ومسلم ، عن أبـي هريـرة رضـى الله عنـه قـال : قـال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : " من حج فلم يرفث ، ولم يفسق . . رجع كيوم ولدته أمه".

روى مسلم ، عن عمرو بن العاص ، قال : لما جعل الله الإسلام في قلبـي . . أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : أبسط يدك لأبايعك.

فبسط .

فقبضت يدي.

فقال : مالك يا عمرو . . ؟

قلت : اشترط.

قال : تشترط ماذا . .؟

قلت : أن يغفر لي .

قال : " أما علمت أن الإسـلام يهـدم مـا قبلـه ، وأن الـهجرة تـهدم مـا قبلـها ، وأن الحج يهدم ما قبله . . " ؟

ج . ويجعل صاحبه مجاب الدعوة

عن أبي هريرة رضى الله عنه . . أن رسول الله صـلى الله عليـه وسـلم ، قـال : " الحجاج والعمار : وفد الله ، إن دعوه : أجابهم ، وإن استغفروه : غفر لهم".

د . ويدخل صاحبه الجنة :

روى ابن جريج . بإسناد حسن . عن جابر رضـى الله عنـه ، أن رسـول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : " هذا البيت . . دعامة الإسـلام ، فمـن خـرج يـؤم هذا

البيت ، من حاج أو معتمر : كان مضمونا على الله إن قبضه . . أن يدخله الجنة ، وإن رده . . رده بأجر وغنيمة " .

* * * *

تقبيل الحجر الأسود عند استلامه
وتقبيل الأيدي عند استلام الركن اليماني

-

اعلم أنه لو لم يرد في الحجر الأسود شئ من الأحاديث ، لكفى له شرفا كونه في ركن بيت الله المعظم ، وإجماع الناس على احترامه وتعظيمه آناء الليل وأطراف النهار جاهلية وإسلاما.

فحجر في بيت الله الحرام ، جاء به جبريل ووضعه إبراهيم الخليل ، ثم وضعه خاتم الأنبياء نبينا محمد ، صلى الله عليه وسلم بيده فيه أيضا ، وقبله هو والأنبياء والمرسلون والأصفياء والمتقون ، ويتمسح به عامة الناس من جميع الأجناس منذ وجوده بالبيت إلى أن تقوم الساعة : لجدير بكل احترام وتعظيم ، وتقبيل وتسليم .

على أن هذا الركن الكريم سواء كان من الجنة أو من الأرض ، فهو حجر لا يضر ولا ينفع ، وما اكتسب هذا الشرف والاحترام إلا من الأديان السماوية ، وانظر إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، كيف يخاطب هذا الحجر الكريم حين تقبيله ويقول : " والله إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك" وفي رواية " كان عمر بن الخطاب إذا بلغ موضع الركن قال أشهد أنك حجر لا تضر ولا تنفع وأن ربي الله الذي لا إله إلا هو ، ولولا أني رأيت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : يمسحك ويقبلك ما قبلتك ولا مسحتك".

ثم إن في تقبيل المسلمين واستلامهم للحجر الأسود نقطة دقيقة أخرى وهي : أن تقع أفواههم موضع فم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفم الأنبياء الذين

قبله ، عليهم الصلاة والسلام ، وأن تلمس أيديهم ما لمسته يده الشريفة من هذا الحجر المكرم ، وأي مسلم إذا خطرت بباله هذه النقطة ليبادر بتقبيله واستلامه.

ثم للحجر الأسود مغزى خاص ورمزي تعبدي . ذلك . أن المسلمين إذا أتوا من كل فج عميق لأداء فريضة الحج ، فطافوا ببيت الله الحرام واجتمعوا على تقبيل هذا الحجر الأسود . فكأنهم بذلك يبايعون الله ورسوله ويقدمون لهما الطاعة والإيمان بهما ، وفي هذا نهاية الخضوع والامتثال .

وأما عن تقبيل الأيدي عند استلام الركن :

فقد كان الصحابة رضوان الله عليهم إذا استلموا الحجر قبلوا أيديهم نقول : ومن عادة أهل مكة إلى يومنا هذا أن بعضهم إذا صافح إنسانا قبل يد نفسه ، والظاهر أن هذه العادة قديمة العهد ناشئة من تقبيل الأيدي إذا استلموا الحجر الأسود كما تقدم . والله تعالى أعلم .

جاء في كتابنا " إرشاد الزمرة لمناسك الحج والعمرة" عند الكلام على سنن الطواف ما نصه :

وسنن الطواف كثيرة . منها . أن يستقبل الطائف الحجر الأسود قبل البدء بالطواف إذا كان المطاف خاليا ، وأن يستلمه بيده اليمنى ثم يقبله بفمه قبلة خفيفة ثم يضع جبهته عليه ويفعل ذلك في كل مرة ، فإن عجز عن التقبيل بيده اليمنى فباليسرى ، فإن عجز عن استلامه ، استلمه بنحو عود ثم قبل ما استلم به ، فإن عجز عن استلامه أشار إليه بيده أو بشئ فيها ثم قبل ما أشار به ، ولا يشير بالفهم إلى التقبيل ، ولا يزاحم للتقبيل ، بل تحرم المزاحمة والاستلام إن آذى غيره أو تأذى بغيره ، ولا يستحب للنساء في الطواف استلام ولا تقبيل للحجر الأسود والركن اليماني إلا عند خلو المطاف.

(ومنها) أن يستلزم الركن اليماني بيده ويقبل يده بعد استلامه ، فإن عجز عن استلامه أشار إليه بيده أو بشئ فيها لكن لا يقبل ما أشار به للركن اليماني ، وظاهر كلام النووي وغيره تقبيل ما أشار به إليه أيضا ، أما الركن الشامي والركن العراقي فلا يسن تقبيلهما ولا استلامهما.

قال البجيرمي في حاشيته : وقد ثبت أنه ، صلى الله عليه وسلم ، قبل الحجر الأسود ، وثبت أن استلمه بيده ثم قبلها ، وثبت أنه استلمه بمحجنه فقبل المحجن ، ولم يثبت أنه ، صلى الله عليه وسلم ، قبل الركن اليماني ولا قبل يده حين استلمه ، ولم يستلم الركنين المقابلين للحجر ، وهما : الشامي ، والعراقي . أ. هـ.

الزحام على تقبيل الحجر الأسود :

يسن تقبيل الحجر الأسود اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكن بشرط أن لا يؤذي المسلتم غيره فإن حصل ذلك حرم تقبيله لحدوث الضرر له أو لغيره ، وعندئذ يكفي أن يشير إلى الحجر الأسود بيده ويقبل يده.

جاء في تاريخ الأزرقي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال لعمر بن الخطاب : " يا عمر إنك رجل قوي وإنك تؤذي الضعيف فإذا رأيت خلوة فاستلمه وإلا فكبر وامض" ، وجاء فيه أيضا عن هشام بن عروة أن عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه كان يستلم إذا وجد فجوة فإذا اشتد الزحام كبر كلما حاذاه .

وجاء فيه أيضا عن عطاء انه سمع ابن عباس يقول إذا وجدت على الركن زحاما فلا تؤذ ولا تؤذى ، وجاء فيه أيضا كان طاووس قل ما استلم الركنين إذا رأى عليهما زحاما قال ابن عباس لا تؤذ مسلما ولا يؤذيك إن رأيت منه خلوة فقبله أو استلمه وإلا فامض .

* * *

وأما ما يكون من الحجاج في موسم الحج من ازدحامهم الشديد على تقبيل الحجر الأسود ، وأنهم لا يبالون بحصول الأذى لهم أو لغيرهم ، فإنا نرى لهم نوع عذر في ذلك فإنهم قد أتوا من بلاد بعيدة يقصدون هذا البيت المقدس أفلا يحق لهم أن يقبلوا الحجر الأسود ولو مرة واحدة لكل فرد منهم حتى تلمس شفتاه موضع شفتي رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وحتى لا تبقى حسرة في قلب من رجع إلى بلده ولم يستلم الحجر الأسود المبارك ولم يعرف شكله .

والذي نذهب إليه والله تعالى أعلم : أنه بدأ التزاحم على الركن منذ ظهور الإسلام من عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لما ورد في تقبيله من

الأحاديث ، وقد أفرد الإمام الأزرقي ، رحمه الله تعالى ، في تاريخه فصلا لذلك فقال : (الزحام على استلام الركن الأسود والركن اليماني) فجاء فيه عن ابن عمر عن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، إنه كان لا يدع الركن الأسود والركن اليماني أن يستلمهما في كل طواف أتى عليهما ، قال وكان لا يستلم الآخرين . أ هـ نقول والله تعالى أعلم ، أن عدم استلام الركنين الآخرين " العراقي والشامي " كان لعدم وجودهما في بناء قريش الكعبة فإنها بنت جدارها المقابل لحجر إسماعيل مدورا ليس فيه الركنان المذكوران كما كان ذلك في عهد إبراهيم ، عليه الصلاة والسلام أيضا ، فلما بنى ابن الزبير ، رضى الله عنهما الكعبة جعل لهذا الجدار ركنين "العراقي والشامي" فصار للكعبة أربعة أركان فلما بناها الحجاج جعلها كذلك .

وجاء فيه أيضا : أن ابن عمر ، رضى الله عنهما ، كان لا يدع الركنين "أي الركن الأسود والركن اليماني" في كل طواف طاف بهما حتى يستلمهما ، لقد زاحم على الركن مرة في شدة الزحام حتى رعف [1] فخرج فغسل عنه ، ثم رجع فعاد يزاحم فلم يصل إليه حتى رعف الثانية فخرج فغسل عنه ثم رجع فما تركه حتى استلمه .

وجاء فيه أيضا : عن سالم بن عبد الله يقول : أن عبد الله بن عمر كان لا يترك استلام الركنين في زحام ولا غيره حتى رأيته زاحمنا عنه يوم النحر وإصابه دم فقال قد أخطأنا هذه المرة ، وجاء فيه أيضا عن طلحة بن يحيى قال سألت القاسم بن محمد عن استلام الركن فقال استلمه وزاحم عليه يا ابن أخي فقد رأيت ابن عمر يزاحم عليه حتى يدمي ، وجاء فيه أيضا : عن هشام بن عروة عن أبيه أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال لعبد الرحمن بن عوف كيف صنعت يا أبا محمد في استلام الحجر ، وكان قد استأذنه في العمرة فقال كلا قد فعلت استلمت وتركت ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أصبت . انتهى كل ذلك من الأزرقي.

فعليه نرجو الله سبحانه وتعالى العفو والغفران في ازدحام الحجاج وغيرهم على تقبيل الحجر الأسود خصوصا وأنهم يرضون بطيب خاطر بحصول الأذى لهم

---

[1] - أي : نزف الدم من أنفه.

في سبيل ذلك ، وأنهم يعدون أنفسهم سعداء إذا فازوا بتقبيله وهو كذلك إن شاء الله ، ففضل الله عظيم ورحمته واسعة .

(تنبيه) إن ما عمله عبد الله بن عمر ، رضى الله عنهما ، من محافظته على

استلام الركنين في كل طوفة طاف بهما وأنه لا يتركهما حتى في شدة الزحام ، هذه خصوصية له لا يطلب من أحد أن يزاحم على الركنين اقتداء به ، فهو رضى الله عنه ، من أجلاء الصحابة له اجتهاده وعمله فإنه كان شديد المحافظة على كل ما سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتتبع أفعاله ، فقد جاء في زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم عند حديث " نعم الرجل عبد الله لو كان يصلي من الليل " ، أن الزبير بن بكار قال كان ابن عمر يحفظ ما سمع من رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ويسأل من حضر إذا غاب عن قوله وفعله وكان يتبع آثاره في كل مسجد صلى فيه وكان يعترض براحلته في طريق رأى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، عرض ناقته فيه وكان لا يترك الحج وكان إذا وقف بعرفة يقف في الموقف الذي وقف فيه رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وفي الزهد للبيهقي بسند صحيح ما ذكر ابن عمر رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، إلا بكى ولا مر على ربعهم إلا غمض عينيه . فرجل هذا حاله يجب أن نعتبر بحاله رضى الله عنه وعن جميع الصحابة [1].

* * * *

زيارة قبر المصطفى صلى الله عليه وسلم ، والمسجد النبوي

-

أ . فضل زيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم : .

روى عن ابن عمر رضى الله عنه . مرفوعا . أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من حج فزار قبري بعد موتي : كان كمن زارني في حياتي".

---

[1] - محمد طاهر الكردي. . مصدر سابق ص 297 وما بعدها . . باختصار.

وعن عطاء ، عن ابن عباس ، رضى الله عنهم ، أن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : " من زارني حتى انتهى إلى قبري : كنت له يوم القيامة . . شهيدا ، أو شفيعا "

وروى ابن عدي والطبراني ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "من حج البيت ولم يزرني : فقد جفاني" .

وعن أنس رضى الله عنه ، مرفوعا ، أن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : "من زارني ميتا : فكأنما زارني حيا ، ومن زار قبري : وجبت له شفاعتي يوم القيامة ، وما من أحد من أمتي له سعة ، ثم لم يزرني : فليس له عذر".

ب . فضل زيارة المسجد النبوي الشريف : .

روى البخاري ومسلم وأبو داود ، عن أبي هريرة ، رضى الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : " لا تشد الرحال . . إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدي هذا ، والمسجد الأقصى " .

وروى أحمد بسند صحيح ، عن جابر رضى الله عنه،أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال:"صلاة في مسجدي : أفضل من ألف صلاة فيما سواه، إلا المسجد الحرام ، وصلاة في المسجد الحرام : أفضل من مائة ألف صلاة فيما سواه".

وقد جاء في الأحاديث : أن فضل الصلاة في المسجد الأقصى : أفضل مما سواه من المساجد . غير المسجد الحرام والمسجد النبوي . بخمسمائة صلاة.

وروى أحمد والطبراني بسند صحيح . . عن أنس بن مالك ، رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : " من صلى في مسجدي أربعين صلاة ، لا تفوته صلاة : كتبت له براءة من النار، وبراءة من العذاب، وبرئ من النفاق".

وعن أي ذر ، رضى الله عنه ، قال : قلت يا رسول الله . . !! أي مسجد وضع في الأرض ، أول . . ؟

قال : المسجد الحرام .

قلت : ثم أي . .؟

قال : المسجد الأقصى .

قلت : كم بينها . . ؟

قال : "أربعون سنة ، ثم . . أين أدركتك الصلاة بعد . . فصل ، فإن الفضل فيه ".

ج . من آداب الزيارة :

أ . يستحق : إتيان مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسكينة والوقار ، وأن يكون متطيبا بالطيب ، متجملا بأحسن الثياب.

ب . وينبغي عليه : أن لا يرفع صوته . خلال الزيارة . إلا بقدر ما يسمع نفسه ، وعلى ولي الأمر أن يمنع من ذلك من يرفع صوته برفق ، فقد ثبت أن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه ، رأى رجلين يرفعان أصواتهما في المسجد النبوي ، فقال : لو أعلم أنكما من البلد ، لأوجعتكما ضربا .

ج . كما ينبغي عليه : أن يتجنب التمسح بالحجرة الشريفة . أي القبر . والتقبيل لها ، أو أي مكان آخر كذلك .

حيث إن ذلك مما نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقد روى أبو داود . . عن أبي هريرة ، رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : " لا تجعلوا بيوتكم قبورا ، ولا تجعلوا قبري عيدا ، وصلوا علي ، فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم " .

د . طريقة الزيارة :

إذا نوى زيارة القبر الشريف فلينوا معه زيارة المسجد أيضا ، فإنه أحد المساجد التي تشد إليها الرحال .

وإذا توجه للزيارة يكثر من الصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم مدة الطريق ، ويصلي في طريقه من مكة إلى المدينة في المساجد التي يمر بها .

وإذا عاين حيطان المدينة يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم ، ويقول : "اللهم هذا حرم نبيك ، فاجعله وقاية لي من النار ، وأمانا من العذاب ، وسوء الحساب " ، ويغتسل قبل الدخول وبعده إن أمكنه ، ويتطيب ويلبس أحسن ثيابه ويدخلها متواضعا عليه السكينة والوقار .

وإذا دخل المدينة يقول : (اللهم رب السموات وما أظللن ، ورب الأرضين وما أقللن ، ورب الرياح وما ذرين ، أسألك خير هذه البلدة وخير أهلها وخير ما فيها ، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر أهلها ، اللهم هذا حرم رسولك ، فاجعل دخولي فيه وقاية لي من النار ، وأمانا من العذاب وسوء الحساب).

وإذا دخل المسجد فعل ما يفعله في سائر المساجد من تقديم رجله اليمنى ، ويقول : اللهم صلي على محمد وعلى آل محمد . اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك . اللهم اجعلني اليوم من أوجه من توجه إليك ، وأقرب من تقرب إليك ، وأنجح من أعال وابتغى مرضاتك .

ويصلي عند منبره ركعتين : ويقف بحيث يكون عمود المنبر بحذاء منكبه الأيمن ، وهو موقفه عليه السلام ، وهو بين القبر الشريف والمنبر، ثم يسجد شكرا لله تعالى ما وفقه ، ويدعو بما يحب.

ثم ينهض فيتوجه إلى قبره صلى الله عليه وسلم ، فيقف عند رأسه الشريف مستقبل القبلة ، ثم يدنو منه ثلاثة أذرع ، أو أربعة ، ولا يدنو أكثر من ذلك ، ولا يضع يده على جدار التربة ، ويقف كما يقف في الصلاة ، ويتمثل صورته الكريمة البهية كأنه نائم في لحده عالم به يسمع كلامه ، ثم يقول : "السلام عليك يا نبي الله ورحمة الله وبركاته ، أشهد أنك رسول الله ، فقد بلغت الرسالة ، وأديت الأمانة ، ونصحت الأمة ، وجاهدت في أمر الله ، حتى قبض الله روحك حميدا محمودا ، فجزاك الله عن صغيرنا وكبيرنا خير الجزاء ، وصلى عليك أفضل الصلاة وأزكاها ، وأتم التحية وأنماها ، اللهم اجعل نبينا يوم القيامة أقرب النبيين ، واسقنا من كأسه وارزقنا من شفاعته ، واجعلنا من رفقائه يوم القيامة ، اللهم لا تجعل هذا آخر العهد بقبر نبينا عليه السلام ، وارزقنا العود إليه يا ذا الجلال والإكرام" .

ولا يرفع صوته ولا يخفضه كثيرا ، ويبلغه سلام من أوصاه ، فيقول: "السلام عليك يا رسول الله من فلان ابن فلان يستشفع بك إلى ربك فاشفع له ولجميع المسلمين ".

ثم يقف عند وجهه مستدبرا القبلة ويصلي عليه ما شاء ، ويتحول قدر ذراع حتى يحاذي رأس الصديق رضى الله تعالى عنه ، ويقول : السلام عليك يا

خليفة رسول الله ، السلام عليك يا صاحب رسول الله في الغار ، السلام عليك يا رفيقه في الأسفار ، السلام عليك يا أمينه في الأسرار ، جزاك الله عنا أفضل ما جزى إماما عن أمة نبيه ، ولقد خلفته بأحسن خلف ، وسلكت طريقته ومنهاجه خير مسلك ، وقاتلت أهل الردة والبدع ، ومهدت الإسلام ، ووصلت الأرحام ، ولم تزل قائما للحق ناصرا لأهله حتى أتاك اليقين ، والسلام عليك رحمة الله وبركاته ، اللهم أمتنا على حبه ، ولا تخيب سعينا في زيارته برحمتك يا كريم ، ثم يتحول حتى يحاذي قبر عمر رضى الله عنه ، ويقول : السلام عليك يا أمير المؤمنين ، السلام عليك يا مظهر الإسلام ، السلام عليك يا مكسر الأصنام ، جزاك الله عنا أفضل الجزاء ، ورضى الله عمن استخلفك ، فقد نصرت الإسلام والمسلمين حيا وميتا ، كفلت الأيتام ، ووصلت الأرحام ، وقوى بك الإسلام وكنت للمسلمين إماما مرضيا ، وهاديا مهديا ، جمعت من شملهم ، وأغنيت فقيرهم وجبرت كسرهم السلام عليك ورحمة الله وبركاته ، ثم يرجع قدر نصف ذراع فيقول : السلام عليكما يا ضجيعي رسول الله ورفيقيه ، ووزيريه ومشاوريه ، والمعاونين له على القيام في الدين ، القائمين بعده بصالح المسلمين ، جزاكما الله أحسن الجزاء ، ثم يدعو لنفسه ، ووالديه ، ولمن أوصاه بالدعاء ، ولجميع المسلمين .

ثم يقف عند رأسه الشريف كالأولى ، ويقول : (اللهم إنك قلت وقولك الحق {ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما } [النساء : 64] وقد جئناك سامعين قولك طائعين أمرك مستشفعين بنبيك { ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم } [الحشر : 10] . { ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار { [البقرة : 201] { سبحان ربك رب العزة عما يصفون (180) وسلام على المرسلين (181) والحمد لله رب العالمين } [الصافات :180 . 182].

ويدعو بما يحضره من الدعاء .

ثم يأتي اسطوانة أبي لبابة التي ربط نفسه فيها حتى تاب الله عليه وهي بين القبر والمنبر . فيصلي ركعتين ويتوب إلى الله ويدعو بما شاء ، ثم يأتي

الروضة وهي كالحوض المربع ، فيصلي فيها ما تيسر له ويدعو ، ويكثر من التسبيح والثناء على الله تعالى والاستغفار ، ثم يأتي المنبر فيضع يده على الرمانة التي كان صلى الله عليه وسلم يضع يده عليها إذا خطب ، لتناله بركة الرسول ، ويصلي عليه ويدعو بما شاء ، ويتعوذ برحمته من سخطه وغضبه ، ثم يأتي الاسطوانة الحنانة ، وهي التي فيها بقية الجذع الذي حن إلى النبي صلى الله عليه وسلم حين تركه ، وخطب على المنبر .

ويستحب بعد زيارته عليه السلام أن يخرج إلى البقيع ، ويأتي المشاهد والمزارات ، فيزور العباس ومعه الحسن بن علي ، وزين العابدين ، وابنه محمد الباقر ، وابنه جعفر الصادق ، ويزور أمير المؤمنين سيدنا عثمان ، وقبر إبراهيم ابن النبي صلى الله عليه وسلم ، وجماعة من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، وعمته صفية وكثيرا من الصحابة والتابعين ، خصوصا سيدنا مالكا ، وسيدنا نافعا.

ويستحب أن يزور شهداء أحد ، خصوصا قبر سيد الشهداء سيدنا الحمزة ، ويقول : { سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار } [الرعد :24] سلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، ويقرأ آية الكرسي ، وسورة الإخلاص.

ويستحب أن يأتي مسجد قباء ويدعو بقوله : يا صريخ المستصرخين ، ويا غياث المستغيثين ، ويا مفرج كرب المكروبين ، ويا مجيب دعوة المضطرين ، صل على محمد وآله ، واكشف كربي وحزني ، كما كشفت عن رسولك كربه وحزنه في هذا المقام يا حنان يا منان ، يا كثير المعروف ويا دائم الإحسان يا أرحم الراحمين.

ويستحب له أن يصلي الصلاة كلها في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ما دام في المدينة .

وإذا أراد الرجوع إلى بلده استحب له أن يودع المسجد بركعتين ، ويدعو بما أحب ، ويأتي قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويدعو بما شاء ، والله مجيب الدعاء.

* * *

ثانيا : كيفية الحج والعمرة

.

1. تمهيد.
2. الإحرام .
3. التلبية .
4. طوافة القدوم.
5. السعي بين الصفا والمروة .
6. التروية.
7. الوقوف بعرفات .
8. البيت بمزدلفة.
9. يوم النحر.
10. المبيت بمنى.
11. طواف الوداع.
12. ختاما.

* * *

تمهيد

.

وقبل أن يشرع الحاج ويبدأ في أعمال الحج والعمرة ، أو أعمال الحج وحده ، أو العمرة وحدها ، عليه :

أن يودع أهله ، وإخوانه ، ويذهب إليهم . إن لم يكونوا عنده . ويطلب دعاءهم ، وكذلك :

أن يصلي ركعتين قبل الخروج من بيته .

ثم يقول : اللهم إليك توجهت ، وبك اعتصمت ، وعليك توكلت .

اللهم : أنت ثقتي وأنت رجائي.

اللهم : اكفني ما أهمني ، وما لا أهتم به ، وما أنت أعلم به مني ، عز جارك ، ولا إله غيرك.

اللهم : زودني التقوى ، واغفر لي ذنوبي ، ووجهني إلى الخير أينما توجهت، إني أعوذ بك من وعثاء السفر ، وكآبة المنظر ، وسوء المنقلب في الأهل والمال.

وإذا خرج يقول :

باسم الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، توكلت على الله .

اللهم وفقني لما تحب وترضى ، واحفظني من الشيطان الرجيم ، ويقرأ . . . آية الكرسي ، وسورة الإخلاص ، والمعوذتين . وإذا ركب . . قال : باسم الله ، والحمد لله الذي هدانا للإسلام ، وعلمنا القرآن ، ومن علينا بمحمد صلى الله عليه وسلم .

الحمد لله . . الذي جعلني من خير أمة أخرجت للناس ، { سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين (13) وإنا إلى ربنا لمنقلبون } [الزخرف :13، 14] والحمد لله رب العالمين ثم يبدأ فيما يلي :

* * * *

الإحرام

-

وهذا أول شئ من أفعال الحج والعمرة ، يبدأ به المرء [1].

وذلك . بالطبع . بعد أن قد هيأ نفسه بالمطالب الأولي التي ذكرناها سابقا ، واستحضر الذكريات الغالية التي أشرنا إليها . كذلك ، والنتائج التي يرجو تحقيقها ، فيما سبق .

والإحرام : نية أحد النسكين : الحج ، أو العمرة ، أو هما معا .

وهو : ركن من أركان الحج ، أو العمرة . . وذلك : لقوله تعالى:{ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين } [البينة : 5] .

---

[1] - مواد هذا الفصل . . من كتاب " الفقه على المذاهب الأربعة " . . نشر : وزارة الأوقاف (الطبعة السابعة) وكتاب فقه السنة للشيخ سيد سابق.

وأيضا : لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم " إنما الأعمال بالنيات ،وإنما لكل امرئ ما نوى" { رواه : البخاري . . كتاب بدء الوحي ، باب كيف كان بدء الوحي .. إلخ . . ؟] .

ويكون هذا الإحرام : من الميقات ، أي المكان المحدد لأهل كل ناحية من نواحي أرض الله .

حيث لا يجوز لأحد تجاوزها وتعديها لأداء الحج أو العمرة إلا محرما ، ولو فعل . . كان عليه دم .

ويجوز الإحرام لمن أراد الحج أو العمرة من قبل أن يأتي إلى هذه المواقيت ، ولو كان ذلك من بيته ، مع الكراهة [1].

وهذه المواقيت المكانية ، كما بينها رسول الله صلى الله عليه وسلم هي :

. لأهل المدينة ، ومن مر بها (ذا الحليفة) وهذا المكان الذي يعرف الآن بـ (أبيار علي) وهو في الشمال من مكة المكرمة ، وبينه وبين مكة تقريبا 450 كم.

ـ ولأهل الشام ومصر ، ومن مر بهما (الجحفة) وهي قريبة من (رابغ) التي أصبحت أكثر شهرة ، لذهاب معالم (الجحفة) وهي في الشمال الغربي من مكة المكرمة ، وبينه وبين مكة تقريبا 204 كم.

ـ ولأهل العراق ، ومن مر بها (ذات عرق) وهو موضع في الشمال الشرقي من مكة المكرمة ، وبينه وبين مكة تقريبا 94كم.

. ولأهل نجد ، ومن مر بها (قرن المنازل) وهو جبل شرقي مكة المكرمة ، يطل على عرفات وبينه وبين مكة المكرمة تقريبا 94كم.

. ولأهل اليمن ، ومن مر بها (يلملم) وهو جبل يقع جنوب مكة المكرمة ، وبينه وبين مكة تقريبا 54 كم.

ويلاحظ : أن هذه المواقيت لأهل هذه البلاد ، ومن مر بها من غيرها .

. وأما أهل مكة : فميقاتهم . . منازلهم التي بمكة .

. ومن كان بينه بين الميقات ومكة : فميقاته من منزله كذلك.

---

[1] - سيد سابق . . فقه السنة 155/1.

. ومن أراد العمرة ، وهو بمكة : فميقاته الحل ، حيث يخرج إليه ، ويحرم منه ، وأقرب الحل "التنعيم" .

هذا . .

وللإحرام آداب ينبغي مراعاتها ، وهي :

1. النظافة :

قال ابن عمر رضى الله عنه : من السنة : أن يغتسل المرء للإحرام ، وإذا أراد دخول مكة .

ومن النظافة تقليم الأظافر ، ونتف الأبط ، وحلق العانة ، . . إلخ .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن النفساء والحائض : تغتسل وتحرم ، وتقضي المناسك كلها ، غير أنها لا تطوف بالبيت حتى تطهر" [رواه : أبو داود ، والترمذي . وحسنه . وأحمد في المسند]

2. التجرد من الثياب المخيطة ، ولبس ثوب الإحرام .

3. التطيب في البدن والثياب.

تقول السيدة عائشة " كنا نخرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة ، فتنضح جباهنا بالمسك عند الإحرام ، فإذا عرقت إحدانا : سال على وجهها ، فيراه النبي صلى الله عليه وسلم ، فلا ينهانا [رواه : أبو داود ، وأحمد] .

4. صلاة ركعتين ، ينوي فيهما سنة الإحرام .

وتحري الصلاة المكتوبة عنهما .

ويباح للمحرم :

الاغتسال . كلما أراد . وتغيير ملابس الإحرام بغيرها .

تغطية وجهه من غبار أو رماد عند هياج الريح .

لبس الخفين للمرأة .

تغطية رأسه ناسيا .

حك رأسه ، أو جلده .

النظر في المرآه ، والتسوق ، وشم الروائح الطيبة من غير قصد .

التظلل من الشمس بمظلة ، أو بسقف ، أو غيره .

ولا يباح للمحرم :

الجمـاع ودواعيـه ، مـن القبلـة واللمـس لشـهوة ، والحـديث حـول هـذه الموضوعات .

اكتساب السيئات .

المخاصمة مع الرفقاء ، والباعة ، وغيرهم .

لبس المخيط للرجال ، دون النساء : فلهن لبس المخيط دون حرج .

وبذلك : يكون الإحرام . . قد اتضح تماما .

وبعدها : نبين ـ بعون الله تعالى ـ التلبية .

فإلى بيان " التلبية " .

*** * * ***

التلبية

-

عن ابن عمر رضى الله عنهما . . أن تلبية رسول الله صلى الله عليه وسلم "لبيـك الله لبيـك ، لبيـك لا شـريك لـك لبيـك ، إن الحمـد والنعمـة لـك ، والملـك ، لا شريك لك " .

وقد أجمع العلماء على أن هذه التلبية مشروعة .

ومعناها : إجابة نداء الله تعالى لك .

فارج أن تكون مقبولا، حتى لا يقال لك"لا لبيك ولا سعديك"وكن بين الرجاء والخوف ، متبرءا من حولك وقوتك ، معتمدا على فضل الله وكرمه .

ويستحب الاقتصار على ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم في صيغتها ، واختلف العلماء في الزيادة عليها .

ويستحب الجهر بها للرجال ، وأما المرأة : فتسمع نفسها فقط ، دون أن ترفع صوتها .

عن زيد بن خالد . . أن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال " جاءني جبريل ، عليه السلام، فقال: مر أصحابك فليرفعوا أصواتهم بالتلبية، فإنها من شعائر الحج" [رواه ابن ماجه ، وأحمد ، وابن خزيمة ، والحاكم ، وقال صحيح الإسناد].

ويستحب كذلك التلبية : في جميع الأحوال والأوقات ، عند الركوب والنزول ، وفي دبر كل صلاة ، وفي الأسحار ، وغير ذلك .

ولهذه التلبية فضل عظيم .

فعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما . . أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ما من محرم يظل يومه يلبي حتى تغيب الشمس ، إلا غابت ذنوبه ، فعاد كما ولدته أمه " [رواه : ابن ماجه] .

وعن سهل بن سعد . . أن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : ما من مسلم يلبي . . إلا لبى من عن يمينه وشماله : من حجر ، أو شجر ، أو مجر . أي الحصى . حتى تنقطع الأرض من ها هنا وها هنا" [رواه الترمذي ، وابن ماجه ، والبيهقي ، والحاكم وصححه] .

ويلاحظ : أن بدأ وقت التلبية : من ساعة الإحرام . . بحج ، أو بعمرة ، أو بهما .

ونهاية وقتها : للمحرم بحج . . إلى رمي حجرة العقبة يوم النحر؛ حيث يكف عن التلبية عند أول حصاة ؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم : لم يزل يلبي حتى بلغ جمرة العقبة ، كما رواه الجماعة .

وأما بالنسبة للمحرم بعمرة . . فإنه يلبي حتى يستلم الحجر الأسود ، عند بدء الطواف ، فعن ابن عباس رضى الله عنهما . . " أن النبي صلى الله عليه وسلم . . كان يمسك عن التلبية في العمرة : إذا استلم الحجر" [رواه الترمذي ، وقال : حديث حسن صحيح] .

وبذلك : تكون التلبية قد اتضحت تماما .

وبعدها : نبين بعون الله تعالى الطواف .

فإلى بيان : الطواف وأحكامه .

طواف القدوم

.

ومن الطبيعي : أن سيدخل مكة . . زادها الله شرفا وعزا .

ويستحب لدخولها .

أن يغتسل .

وأن يبادر إلى البيت بعد أن يدع أمتعته في مكان إقامته .

وأن يدخل من باب السلام إن أمكن . في أدب وخشوع وضراعة ، وهو يقول : " أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، اللهم اغفر لي ذنبي ، وافتح لي أبواب رحمتك ، أنت السلام ، ومنك السلام ، وإليك يعود السلام ، فأحيينا يا ربنا على السلام ، وحيينا بالسلام "

وأن يرفع يديه . إذا أبصر الكعبة المشرفة . وقال " اللهم زد هذا البيت تشريفا وتعظيما وتكريما ومهابا ، وعزا ، وزد من شرفه وكرمه وعظمه ممن حجه أو اعتمره ، تشريفا وتكريما ، وتعظيما وبرا" .

ثم يقصد إلى الحجر الأسود ، فيقبله إن أمكن ، وإلا استلمه بيده فقط وقبله ، وإن عجز : أشار إليه بيده ، كل ذلك دون مزاحمة تؤذي الغير، أو يؤذي بها نفسه .

ثم يقف بحذائه ، ويبدأ في الطواف حول البيت .

ويلاحظ : أنه لا يصلي تحية المسجد كما في المساجد الأخرى ، حيث إن تحيته الطواف ، إلا إذا كان الصلاة المكتوبة مقامة : فيصليها مع الإمام ، ثم يذهب للطواف راجيا رحمة الله وفضله ، يقول صلى الله عليه وسلم " ينزل الله كل يوم على حجج بيته الحرام عشرين ومائة رحمة ، ستين للطائفين ، وأربعين للمصلين ، وعشرين للناظرين " [رواه البيهقي . بإسناد حسن . عن ابن عباس رضى الله عنهما].

وكيفية الطواف . . كما يلي :

يبدأ طوافه من عند الحجر الأسود ، جاعلا البيت عن يساره ثم يطوف، قائلا : بسم الله ، والله أكبر ، اللهم . . !! إيمانا بك ، وتصديقا بكتابك ، ووفاء بعهدك ، واتباعا لسنة نبيك صلى الله عليه وسلم " . وهكذا : سبعة أشواط.

ويستحب له في الطواف :

أن يرمل ـ أي يسرع الخطا المتقاربة في المشي ـ في الأشواط الثلاثة الأول ، ثم يمشي عاديا في الأشواط الأربعة الباقية ، فإن لم يمكنه الرمل : فلا شئ عليه .

ثم يقبل الحجر الأسود ، أو يستلمه ، في كل شوط ، فإن لم يتمكن : أشار إليه بيده .

أن يستلم الركن اليماني كذلك ـ دون تقبيل ـ في كل شوط ، إن أمكن ذلك .

أن يكثر من الذكر والدعاء ، بما ينشرح له صدره ، ويتيسر له حفظه ، دون التزامه بذكر معين ؛ حيث لم يحفظ عن النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك شئ.

أن يقول بين الركن اليماني والحجر { ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار } [رواه : أبو داود والشافعي].

فإذا فرغ من الأشواط السبعة : صلى ركعتين ، عند مقام إبراهيم عليه السلام تاليا { واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى } [البقرة : 125] .

وبهذا ينتهي الطواف .

فإن كان الطائف . . مفردا بالحج : سمى هذا الطواف . . طواف القدوم ، أو طواف التحية ، أو طواف الدخول ، وهو ليس بركن ، ولا بواجب .

وإن كان الطائف . . قارنا ، أو متمتعا : كان هذا الطواف . . طواف العمرة ـ وهو يجزئ عن طواف التحية ـ وعليه أن يستكمل عمرته ، فيسعى بين الصفا والمروة .

وينبغي للحاج والمعتمر : أن يغتنم فرصة وجوده بمكة : ويكثر من الطواف ، والصلاة في المسجد الحرام ؛ حيث إن الصلاة فيه : خير من مائة ألف صلاة فيما سواه من المساجد.

وللطواف حول البيت شروط وآداب . . منها :

الطهارة : من الحدث الأصغر والأكبر ، وأي نجاسة .

ستر العورة .

أن يكون سبعة أشواط كاملة .

أن يكون البيت عن يساره حال الطواف.

أن يكون الطواف خارج البيت ، يعني خارج حجر إسماعيل عليه السلام .

موالاة السعي. . يعني : أن يكون متتابعا ، إلا لعذر ، أو لفاصل يسير .

أن يستقبل الحجر الأسود عند بدء الطواف ، مع الكبير والتهليل ورفع اليدين ، وكلما مر به خلال الطواف.

هذا . .

واعلم أنك بالطواف تشبه بالملائكة المقربين ، الحافين حول العرش ، الطائفين حوله ، فطف بقلبك لا بجسمك.

وأنواع الطواف حول البيت أربعة ، هي :

طواف القدوم .

طواف الإفاضة .

طواف الوداع .

طواف التطوع .

وبذلك : يكون الطواف معلوما تماما .

وبعده : يكون السعي بين الصفا والمروة .

فإلى بيان السعي بين الصفا والمروة .

*** * * ***

السعي بين الصفا والمروة

-

وأصل مشروعيته: ما كان من فعل السيدة "هاجر" عندما تركها "إبراهيم" عليه السلام مع وليدها "إسماعيل" عليه السلام ، بهذا المكان ، ونفذ منها الماء ، وقامت تسعى بين الجبلين "الصفا والمروة" بحثا عن الماء ، حتى نبع ماء زمزم.

يقول ابن عباس رضى الله عنهما : قال النبي صلى الله عليه وسلم "فلذلك : سعى الناس بينهما" .

قالت عائشة : " وقد سن رسول الله صلى الله عليه وسلم الطواف بينهما ، فليس لأحد أن يترك الطواف بينهما.

ومع التسليم بأن السعي بين الصفا والمروة ركن من أركان العمرة ..

فقد اختلف العلماء في حكمه بالنسبة للحج ، هل هو : ركن من أركان الحج ، أي يبطل الحج بدونه ، ولا يجبر بدم .

أو هو : سنة ، لا يجب بتركه شئ .

أو هو : واجب ، وليس بركن ، لا يبطل الحج بدونه ، وإذا تركه يجبر بدم .

وهو اختلاف : لا يتسع له المقام ، ولا يؤثر على صحة الحج وتمام الأداء ، ما دام كل رأي له دليله [1].

والذي يعنينا هنا : بيان شروط صحة السعي وهي :

أن يكون بعد طواف .

أن يبدأ بالصفا ويختم بالمروة .

أن يكون سبعة اشواط .

أن يكون السعي في المسعى ، أي في الطريق الممتد بين الصفا والمروة ، في الدور الأرضي ، أو العلوي ، أو السطح ، بلا تفرقة .

وذلك : لفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم . ذلك ، ولقوله عليه الصلاة والسلام "خذوا عني مناسككم".

ـ ويستحب لمن يسعى بين الصفا والمروة أن يلصق قدمه بجبلي الصفا والمروة ، كلما وصل إلى واحد منهما .

---

[1] - من أراد التوسع : فعليه بكتب الفقه ، وأيضا فقه السنة **599/1**.

الصعود ـ قدر الإمكان ـ على جبلي الصفا والمروة كلما وصل إلى واحد منهما ، والدعاء عليهما ـ مع استقبال القبلة ـ بما شاء من الأدعية.

ـ ويستحب أن تكون على طهارة ، إلا الحائض والنفساء ، فلها أن تسعى دون طهارة .

ـ ويندب المشي بين الصفا والمروة ، فيما عدا ما بين الميلين الأخضرين ، حيث يندب الرمل بينهما في كل شوط في الأشواط السبعة .

وبهذا السعي بين الصفا والمروة . . !!

تنتهي أعمال العمرة .

ويحل المحرم من إحرامه بالحلق أو التقصير . . إن كان معتمرا فقط ، أو كان متمتعا.

ويبقى على إحرامه من كان قارنا بين الحج والعمرة ، أو كان مفردا بالحج فقط ، ولا يحل إلا يوم النحر ، بعد الرمي ، أو بعد طواف الإفاضة .

ويكفيه هذا السعي عن السعي بعد طواف الإفاضة . . . إن كان قارنا ، أو مفردا .

ويسعى مرة أخرى ، بعد طواف الإفاضة . . إن كان متمتعا .

وبعد تمام هذا السعي يبقى مقيما بمكة حتى يوم التروية ، وهو اليوم الثامن من ذي الحجة.

المتمتع : يبقى بغير إحرام .

والقارن ، والمفرد : يبقى كل منهما بإحرامه .

وبذلك : يكون السعي بين الصفا والمروة ، واضحا غاية الوضوح.

وبعده : يكون الحديث عن التروية .

فإلى : بيان يوم التروية وما فيه من أحكام وأفعال.

*** * * ***

التروية

.

ويسن للحجاج ـ في اليوم الثامن من ذي الحجة ـ التوجه إلى مني للمبيت بها في ذلك اليوم .

فإذا كان المرء قارنا ، أو مفردا : توجه إليها بإحرامه ، الذي ظل فيه منذ أن دخل فيه .

وإن كان متمتعا : أحرم بالحج ، من المكان الذي هو فيه بمكة ، يفعل في إحرامه ما فعله في إحرامه السابق قبل أن يتحلل منه .

هذا . .

ولو ذهب إلى "منى" قبل اليوم الثامن : لا حرج عليه .

وأيضا : لو لم يذهب إلى منى ، وظل بمكة ، أو ذهب مباشرة إلى "عرفات" . . لا حرج عليه أيضا .

فإن السيدة عائشة رضى الله عنها : لم تخرج من مكة "يوم التروية" حتى دخل الليل ، وذهب ثلثه ، كما روى ذلك ابن المنذر .

ويستحب : الإكثار من . . الدعاء ، والتلبية ، عند التوجه إلى منى ، وبها أيضا.

كما يستحب : صلاة الظهر ، والعصر ، والمغرب ، والعشاء ، والمبيت بها ، وصلاة فجر يوم التاسع ، ثم يخرج منها ـ متوجها إلى عرفات ـ بعد طلوع شمس اليوم التاسع ؛ اقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم .

وبذلك : تكون أعمال يوم التروية قد تمت .

وبعدها : يتوجه الحاج إلى عرفات الله فإلى عرفات .

*** * * ***

الوقوف بعرفات

-

وهذا : هو الركن الأعظم في الحج .

وذلك : لقول النبي صلى الله عليه وسلم " الحج : عرفة" .

ويرى جمهور العلماء : أن وقت الوقوف بعرفات يبدأ من زوال اليوم التاسع ، إلى طلوع فجر اليوم العاشر من ذي الحجة ، وأنه يكفي الوقوف في أي جزء . من هذا الوقت . ليلا أو نهارا .

ولكن إذا وقف بالنهار . . وجب عليه البقاء حتى يمر جزء من الليل بعد المغرب ، وإما إذا وقف بالليل : فيكفيه ذلك ، ولا شئ عليه .

ومن رحمة الله تعالى . . أن من حضر ووجد في عرفات في هذا الوقت ، أو أي جزء منه ، سواء كان نائما أو يقظان ، راكبا أو ماشيا ، طاهرا أو غير طاهر ، كالحائض والنفساء والجنب صح حجه ، وسقطت عنه الفريضة.

ويستحب في يوم عرفة .

الإكثار من التكبير ، والتهليل ، والتلبية .

والنزول بنمرة ، والاغتسال عندها ، إن أمكن . للوقوف بعرفة .

وأن لا يدخل عرفة إلا بعد الزوال .

وأن يقف عند الصخرات . أسفل جبل الرحمة . أو قريبا منها ، حسب الإمكان.

والإفطار . أي عدم الصوم . في يوم عرفة ؛ ليتقوى على الذكر، والدعاء.

وينبغي :

أن يجمع بين الظهر والعصر قصرا ، يوم عرفة ، مع الإمام.

فإن لم يتمكن مع الإمام : يجمع منفردا .

يؤذن . . ثم يقيم فيصلي الظهر ، ثم يقيم فيصلي العصر ، وفي الحديث الصحيح : " أن النبي صلى الله عليه وسلم جمع بين الظهر والعصر بعرفة" .

كما ينبغي :

أن يحافظ على الطهارة الكاملة . . طيلة هذا اليوم .

وأن يستقبل القبلة ، ويكثر من الاستغفار والذكر والدعاء لنفسه ، ولغيره ، بما شاء من أمر الدين والدنيا والآخرة ، مع الخشية ، وحضور القلب ، والإخلاص ، والإلحاح في الدعاء ، ورفع اليدين.

قال أسامة : " كنت ردف النبي صلى الله عليه وسلم بعرفات ، فرفع يديه يدعو" [رواه : النسائي].

وكان أكثر دعاء النبي صلى الله عليه وسلم يوم عرفة :

" لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، بيده الخير ، وهو على كل شئ قدير" [رواه : الترمذي ، وأحمد] .

وعن علي رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن أكثر دعاء من قبلي من الأنبياء ، ودعائي يوم عرفة . . أن أقول :

" لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، هو على كل شئ قدير" .

اللهم . . اجعل في بصري نورا ، وفي سمعي نورا ، وفي قلبي نورا .

اللهم . . اشرح لي صدري ، ويسر لي أمري.

اللهم . . أعوذ بك من وسواس الصدر ، وشتات الأمر ، وشر فتنة القبر ، وشر ما يلج في الليل ، وشر ما يلج في النهار ، وشر ما تهب به الرياح ، وشر بوائق . أي : مهلكات . الدهر" [رواه : البيهقي] .

وعنه عن النبي صلى الله عليه وسلم . كذلك . قال : أكثر داء النبي صلى الله عليه وسلم في الموقف :

" اللهم . . !! لك الحمد كالذي نقول ، وخيرا مما نقول .

اللهم . .!! لك صلاتي ، ونسكي ، ومحياي ، ومماتي ، إليك مآبي ، ولك تراثي" .

اللهم . . !! إني أعوذ بك من عذاب القبر ، ووسوسة الصدر، وشتات الأمر.

اللهم . . !!

إني أعوذ بك من شر ما تهب به الريح " [رواه : الترمذي] .

وفي ختام يوم عرفة ، وبعد غروب شمس اليوم التاسع من ذي الحجة : يكون انصراف الناس من عرفة ، متوجهين إلى "مزدلفة" .

وهو ما يسمى بـ "الإفاضة" .

ويسن الإفاضة ، بعد الغروب ، في سكينة وهدوء ، وخشوع لله رب العالمين ، والسير برفق وأناة ، وتجنب الزحام ، والبعد عن إيذاء الآخرين ، ومساعدة الضعفاء والمحتاجين للعون والمساعدة.

وقد أفاض النبي صلى الله عليه وسلم بالسكينة ، بعد الغروب ، متوجها إلى "مزدلفة" وهو يقول : " أيها الناس : عليكم بالسكينة ، فإن البر . . ليس في الإسراع " [رواه : البخاري] .

ويستحب . في حال الإفاضة هذه . الذكر والتلبية .

حيث إن النبي صلى الله عليه وسلم : لم يزل يلبي حتى رمى جمرة العقبة .

وبذلك : تكون أعمال يوم عرفة قد تمت.

وبعدها : يتوجه الحاج إلى "مزدلفة".

فإلى مزدلفة .

* * * *

المبيت بالمزدلفة

-

فإذا وصل الحاج . بتوفيق الله . إلى مزدلفة : كان عليه ما يلي :

1. أن يصلي المغرب والعشاء ، قصرا ، وجمعا .

2. أن يضطجع ويستريح ، نائما أو غير نائم ، حتى يطلع الفجر ، وليس عليه أن يحيى هذه الليلة بذكر أو صلاة ، أو غيرها ؛ حيث لم يثبت ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم .

وهذا المبيت : واجب ، إلا على أصحاب الأعذار ، ومن وراءهم مصالح ضرورية .

3. أن يصلي الفجر بمزدلفة في أول وقتها.

4. أن يقف بالمشعر الحرام إلى أن يسفر الصبح ، وهو يدعو الله ويذكره ، لقوله تعالى : { فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما

هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين (198) ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم } [البقرة :198 ـ 199] .

5. ثم يفيض متوجها من مزدلفة إلى منى قبل طلوع الشمس.

وعليه ـ خلال ذلك ـ إذا أتى " وادي محسر" ـ وهو بين مزدلفة ومنى ، سار مسرعا ؛ حيث إنه المكان الذي نزل فيه عذاب الله على أصحاب الفيل.

وبذلك : تكون أعمال مزدلفة قد تمت .

وبعدها : يكون الحاج . . قد دخل في يوم النحر .

فإلى يوم النحر .

* * * *

يوم النحر

-

وفيه :

* رمى جمرة العقبة .
* الذبح.
* الحلق أو التقصير.
* طواف الإفاضة .

* * *

وهو اليوم العاشر من ذي الحجة .

وأعمال هذا اليوم : كثيرة ، نجملها فيما يلي :

1. رمي جمرة العقبة بمنى .
2. ثم الذبح.
3. ثم الحلق .
4. ثم طواف الإفاضة ، ويسمى كذلك : طواف الزيارة .

وهي تؤدي على هذا الترتيب المذكور.

ولو خالف الحاج هذا الترتيب . . فقدم نسكا على غيره : فلا شئ عليه ، عند أكثر أهل العلم ، وذلك لحديث عبد الله بن عمر ، رضى الله عنه ، أنه قال : وقف النبي صلى الله عليه وسلم ، في حجة الوداع بمنى ، والناس يسألونه .

فجاء رجل ، فقال : يا رسول الله . . !! إني لم أشعر . أي لم أنتبه . فحلقت قبل أن أنحر ؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اذبح ولا حرج".

ثم جاء آخر ، فقال : يا رسول الله . . !! إني لم أشعر،فنحرت قبل أن أرمي ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ارم ولا حرج .

قال : فما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عن شئ قدم ولا أخر ، إلا قال : " افعل ولا حرج" .

بيد أن الإمام أبا حنيفة ، رضى الله عنه ، يرى أن قول النبي صلى الله عليه وسلم : " ولا حرج" رفع الإثم ، دون الفدية .

ولهذا : يرى أن من خالف الترتيب المذكور ، بأن قدم شيئا على آخر ، أو أخره . . فعليه : دم .

وقبل شرح أعمال يوم النحر هذه : يطيب لنا أن نبين أنه . .

برمي المحرم جمرة العقبة يوم النحر ، والذبح . إن كان معه هدي . وحلق الشعر ، أو قصره ، ثم طاف طواف الإفاضة ، وهو ركن من أركان الحج ، حل له ما كان محرما عليه حال الإحرام ، حتى النساء . . وهذا هو التحلل الثاني ، أو التحلل الأكبر ، أو التحلل الأخير .

* * *

وتعالوا بنا . أعزكم الله . إلى بعض التوضيح والتفصيل المفيد لهذه الأعمال التي تتم في يوم النحر هذا .

وهي على النحو التالي :

رمي جمرة العقبة ، والجمار ، بمنى

-

ويرمي الحاج ـ بعد انصرافه من مزدلفة ، ووصوله إلى منى ـ جمرة العقبة . . بسبع حصيات ، مثل : الخذف ، أو حبة الفول ، يعني : أكبر من حبة الحمص ، ودون حبة البندق.

ويؤخذ الحصى : من "المزدلفة" أو من أي مكان آخر.

ولا يرمي الحاج يوم النحر سوى : جمرة العقبة فقط ، وهي الجمرة الثالثة والأخيرة ، من جهة مكة المكرمة.

ويقف الحاج حين الرمي بحيث تكون مكة على يساره ، وجهة عرفات على يمينه .

وعند رمي أول حصاة : يقطع الحاج تلبيته ، ثم يكبر مع كل حصاة.

ويستحب إذا فرغ من تلبيته : أن يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم ، ويسأل الله مغفرته ورضوانه ، دون أن يقف .

ورمي الجمال : واجب ، وليس بركن من أركان الحج ، يعني : لو تركه المرء . . حجه صحيح ، ولكن عليه دم .

ويؤخذ الحصى لهذا الرمي : من المزدلفة ، أو أي مكان آخر .

وأصل مشروعية الرمي :

ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما : " أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لما أتى إبراهيم عليه السلام المناسك . .

عرض له الشيطان . . عند جمرة العقبة : فرماه بسبع حصيات ، حتى ساخ في الأرض .

ثم عرض له . . عند الجمرة الثانية : فرماه بسبع حصيات ، حتى ساخ في الأرض .

ثم عرض له . . عند الجمرة الثالثة : فرماه بسبع حصيات ؛ حتى ساخ في الأرض .

قال ابن عباس : الشيطان . . ترجمون ، وملة أبيكم . . تتبعون .

[رواه ابن خزيمة في صحيحه ، والحاكم وقال : صحيح على شرطهما]

وأما حكمة هذا الرمي :

ففي الإحياء . . للإمام الغزالي :

وأما رمي الجمار . . فليقصد الرامي به : الانقياد للأمر ، وإظهارا للعبودة ، وانتهاضا لمجرد الامتثال ، من غير حظ للنفس والعقل في ذلك.

ثم ليقصد أيضا به : التشبه بإبراهيم عليه السلام ، حيث عرض له إبليس اللعين ، في هذا الموضع ، ليدخل على حجة شبهة ، أو يفتنه بمعصية . . فأمره الله عز وجل : أن يرميه بالحجارة طردا له ، وقطعا لأطماعه .

فإن خطر لك أيها المسلم : أن الشيطان عرض لإبراهيم عليه السلام وشاهده ، فلذلك : رماه ، وأما أنا . . فليس يعرض لي الشيطان ، ولا أراه . . !!

فاعلم أن هذا الخاطر : من الشيطان ، وأنه هو الذي ألقاه في قلبك ؛ ليفتر عزمك في الرمي ، ويخيل إليك أنه : لا فائدة فيه ، وأنه يضاهي اللعب ، فلم تشتغل به ؟ فاطرده عن نفسك بالجد والحزم في الرمي.

إذ بذلك : ترغم أنف الشيطان .

واعلم : أنك في الظاهر . . ترمي الحصى في العقبة ، وفي الحقيقة : ترمي به وجه الشيطان ، وتقصم ظهره .

حيث لا يحصل إرغام أنفه . . إلا : بامتثالك أمر الله سبحانه وتعالى ؛ تعظيما له ، بمجرد الأمر من غير حظ للنفس والعقل فيه [1].

وعدد الحصى الذي يرمي به :

تسع وأربعون حصاة . . لمن تعجل في يومين .

وسبعون حصاة ؟. . لمن جلس في منى أيام التشريق .

في يوم النحر : يرمي جمرة العقبة بسبع حصيات

وفي اليوم الأول من أيام التشريق : وهو اليوم الحادي عشر من ذي القعدة : يرمي بإحدى وعشرين حصاة ، موزعة على الجمرات الثلاث. . الصغرى : سبع ، والوسطى : سبع ، والكبرى : سبع.

وفي اليوم الثاني عشر : هكذا .

ومن لم يتعجل : يرمي في اليوم الثالث عشر . . بإحدى وعشرين ، كذلك.

---

[1] - انظر : إحياء علوم الدين 353/1.

وعلى هذا . . فأيام الرمي : ثلاثة لمن تعجل ، وأربعة لمن لم يتعجل.

يوم النحر ، ويومان بعده . . لمن تعجل.

أو يوم النحر ، وثلاثة بعده . . لمن لم يتعجل.

يقول تعالى : { واذكروا الله في أيام معدودات فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى } [البقرة :203].

ووقت الرمي :

. والوقت المختار للرمي يوم النحر : وقت الضحى بعد طلوع الشمس ؛ حيث إن رسول الله صلى الله عليه وسلم . . رمى ضحى يوم النحر

ويجوز لأصحاب الأعذار ، والنساء ، والصبيان ، وضعفاء الناس : تقديم هذا الرمي من بعد نصف ليلة النحر.

فعن عائشة رضى الله عنها : " أن النبي صلى الله عليه وسلم أرسل أم سلمة ليلة النحر ، فرمت قبل الفجر ، ثم أفاضت " [رواه : أبو داود ، والبيهقي وقال : إسناده صحيح] .

كما يجوز تأخير الرمي . لعذر . ويكره بدون عذر . إلى الليل من يوم النحر.

عن نافع : أن ابنة لصيفة امرأة ابن عمر نفست بالمزدلفة ، فتخلفت هي وصفية ، حتى أتتا منى بعد أن غربت الشمس من يوم النحر، فأمرهما ابن عمر ، أن ترميا جمرة العقبة ، حين قدمتا ، ولم ير عليهما شيئا . [رواه : مالك] .

وقال ابن عباس رضى الله عنه . كذلك . " كان النبي صلى الله عليه وسلم يوم النحر بمنى ، فقال رجل : رميت بعد ما أمسيت " فقال صلى الله عليه وسلم : "لا حرج" [رواه : البخاري] .

هذا . .

. والوقت المختار للمري في أيام التشريق : يبدأ من الزوال حتى الغروب ؛ حيث إن النبي صلى الله عليه وسلم : رمى الجمار ، عند زوال الشمس ، أو بعد الزوال.

واتفق أئمة المذاهب : على أنه إذا أخر الحاج الرمي إلى الليل ، حتى ما قبل طلوع شمس الغد . . أجزأه ، مع الكراهة ، ولا شئ عليه .

ويستحب الوقوف والدعاء بعد الرمي في أيام التشريق ، سوى جمرة العقبة ، فإنه لا يقف بعدها .

يعني : كل رمى بعده رمي : يقف عنده ، مستقبلا القبلة ، داعيا الله ، وحامدا له ، مستغفرا لنفسه وللمؤمنين .

وكل رمى ليس بعد رمي : لا يقف عنده.

فعن سالم بن عبد الله بن عمر ، عن أبيه ، رضى الله عنهم : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان إذا رمى الجمرة الأولى [1] ، التي تلي المسجد . أي : مسجد الخيف . رماها بسبع حصيات ، ثم ينصرف ذات اليسار . قليلا . إلى بطن الوادي ، فيقف مستقبلا القبلة ، رافعا يديه ، ويدعو ، وكان يطيل الوقوف.

ثم يرمي الثانية[2]بسبع حصيات ، يكبر مع كل حصاة ، ثم ينصرف ذات اليسار ، إلى بطن الوادي ، فيقف ، ويستقبل القبلة ، رافعا يديه .

ثم يمضي . . حتى يأتي الجمرة التي عند العقبة [3] : فيرميها بسبع حصيات ، يكبر عند كل حصاة .

ثم ينصرف ، لا يقف . [رواه : البخاري].

ومن المعلوم : أنه تجوز النيابة في الرمى.

أي : يجوز لمن عنده عذر . . أن ينيب غيره ليرمي عنه ، ولا شئ عليه في ذلك .

قال جابر رضى الله عنه : " حججنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعنا النساء والصبيان ، فلبينا عن الصبيان ، ورمينا عنهم" [رواه : ابن ماجه].

وبعد أن تم الكلام على رمى جمرة العقبة ، التي تكون في يوم النحر.

وبعد أن أتبعنا ذلك بالحديث عن رمى الجمرات في أيام التشريق.

يكون الكلام على الذبح في يوم النحر ، على النحو التالي .

*** * * ***

---

[1] - أي : الجمرة الصغرى .

[2] - أي الوسطى ، وهي تبعد عن الصغرى بمقدار 4ر156 مترا.

[3] - وهي تبعد عن الوسطى بمقدار 77ر116مترا.

الذبح

-

وفي يوم النحر ، وبعد أن رمي الحاج "جمرة العقبة" عليه أن يذبح ما يهدى من النعم ـ وهي الإبل ، أو البقر ، أو الغنم ـ للحرم ؛ تقربا لله تبارك وتعالى.

وذلك : لقوله تعالى : { والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون (36] لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين } [الحج :36 ، 37].

وأقل ما يجزئ عن الفرد : شاة ، أو سبع بدنة ، ـ أي : جمل ـ ، أو سبع بقرة ، لقول جابر بن عبد الله رضى الله عنه : " حججنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم: فنحرنا البعير عن سبعة ، والبقرة عن سبعة" [رواه : مسلم].

وهذا الهدى : ينقسم باعتبار حكمه إلى : مستحب ، وواجب.

فالمستحب من الهدى : يكون بالنسبة ـ ـ للحاج المفرد ، والمعتمر المفرد.

والهدي الواجب : يكون على من :

أ ـ ترك واجبا من واجبات الحج ـ ـ مثل : الإحرام من الميقات ، أو الجمع بين الليل والنهار في الوقوف بعرفة ، أو المبيت بمزدلفة ، أو رمى الجمار ، أو طواف الوداع .

ب ـ أو فعل جناية في الحرم ، مثل : قطع شجرة ، أو التعرض لصيده.

ج ـ أو ارتكب محظورا من محظورات الإحرام غير الوطء ، مثل التطيب وهو محرم ، أو الحلق وهو محرم .

وأما الوطء وهو محرم : فعليه بدنة كاملة .

د ـ كما يكون واجبا على ـ ـ القارن ، والمتمتع.

وبالنسبة لوقت ذبح الهدى : فهو يوم النحر ، وأيام التشريق الثلاثة ، وحكى عن البعض ـ ـ حتى آخر ذي الحجة .

وبذلك : تنتهي مدة الذبح إلا إذا كان واجبا وفاته هذا الوقت . . فيذبح قضاء.

وللحاج أن يأكل من لحم هديه ، وذلك لقوله تعالى : { فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير } .

والمختار : أن يقسمه ثلاثا . . فيأكل الثلث ، ويهدي الثلث ، ويتصدق بالثلث.

* * * *

الحلق أو التقصير

-

وبعد أن يقوم الحاج بذبح هديه ، له أن يحلق شعره ، أو يقصره ، على حسب رغبته ، إن كان من الرجال .

وأما المرأة : فلا حلق لها ، ولكن تقصر شعرها من أطرافه ، ولو بمقدار ثلاث شعرات .

ثم يستقبل القبلة ، ويكبر ويدعو ، ويصلي كذلك . إن أمكن . بعد فراغه من الحلق أو التقصير ، شكرا لله تعالى .

ومن طريف وجميل ما يروي هنا . .

قال وكيع : قال أبو حنيفة : أخطأت في خمسة أبواب من المناسك عند الحجام . أي الحلاق . وذلك أني حين أردت أن أحلق رأسي : وقفت.

فقلت له : بكم تحلق رأسي . . ؟

فقال : أعراقي أنت . . ؟

قلت : نعم .

قال : النسك لا يشارط عليه . . إجلس.

فجلست منحرفا عن القبلة .

فقال لي : حرك وجهك إلى القبلة .

وأردت أن أحلق من الجانب الأيسر.

فقال : أدر الشق الأيمن من رأسك ، فأدرته.

وجعل يحلق ، وأنا ساكت

فقال لي : كبر.

فجعلت أكبر ، حتى قمت لأذهب.

فقال لي : أين تريد . . ؟

فقلت : رحلي.

قال : صل ركعتين ، ثم امض.

فقلت : ما ينبغي أن يكون ما رأيت من عقل هذا الحجام . . !!

فقلت له : من أين لك ما أمرتني به . . ؟

قال : رأيت عطاء بن أبي رباح يفعل هذا .

*** * ***

ومن المعلوم . . أن هذا الحلق أو التقصير ، إن كان للحاج بعد الذبح : فهو للمعتمر . . بعد السعي بين الصفا والمروة .

ويستحب لمن حلق أو قصر : أن يقلم أظافره ، ويأخذ من لحيته وشاربه.

كما يستحب للأصلع : إمرار الموس على رأسه تعبدا .

كما يستحب بعد ذلك : أن يغتسل ، ويتطيب ويلبس أجمل ثيابه ، وهذا هو التحلل الأول . . الذي يبيح له كل شئ إلا النساء .

ويتوجه إلى بيت الله تعالى لآداء طواف الإفاضة ، وهو المسمى أيضا طواف الزيارة .

وذلك بعد أن من الله تعالى عليه بالمغفرة، والرضوان ، وأصبح ـ بفضل الله وكرمه ـ كما ولدته أمه طاهرا من كل ذنوبه ، إن شاء الله تعالى .

وكأنه يشكر ربه على هذه النعمة الكبرى .

فإلى طواف الإفاضة ، فيما يلي :

*** * * ***

طواف الإفاضة

-

وهذا الطواف : ركن من أركان الحج ، إذا لم يفعله الحاج . . بطل حجه ، لقوله تعالى : { وليطوفوا بالبيت العتيق } [الحج : 29].

وأول وقته : من نصف الليل من ليلة النحر.

وأفضل وقته : ضحوة النهار ، يوم النحر.

وآخر وقته آخر شهر ذي الحجة .

ولكن يفضل تعجيله .

ومع ذلك . . يستحب للنساء : تعجيل طواف الإفاضة ، إذا كن يخفن الحيض ، حيث كانت السيدة عائشة رضى الله عنها : تأمر النساء بتعجيل الإفاضة يوم النحر ، مخافة الحيض.

بل إن عطاء بن أبي رباح رضى الله عنه ، يرى : أن المرأة إذا خافت الحيض : لها أن تطوف طواف الإفاضة ، قبل أن ترمي جمرة العقبة ، وقبل الذبح أيضا .

ولا بأس ـ كذلك ـ للمرأة أن تستعمل الدواء ، ليرتفع حيضها ، حتى تطوف البيت .

وبذلك : يكون الحج قد تم بجميع أركانه .

ويكون المرء قد تحلل تحللا كاملا ، أي : له كل ما كان ممنوعا عليه خلال فترة الإحرام ، حتى النساء .

ولكن . . !!

بقيت أيام منى ، ومعها رمى الجمرات ، خلال أيام التشريق.

فإلى منى . . وأحكامها ، فيما يلي :

* * * *

البيت بمنى ، ورمي الجمار

-

أما رمى الجمار . . فقد بيناه عند الحديث عن جمرة العقبة ، فليرجع إليه من شاء .

وأما المبيت بمنى .

فإن الحاج . . بعد أن يطوف طواف الإفاضة ، عليه أن يعود إلى منى للمبيت بها .

وهذا المبيت : واجب عند الجمهور ، سنة عند الإمام أبي حنيفة .

ويكون ذلك : في الليالي الثلاث ، أو في ليلتي الحادي عشر والثاني عشر فقط لمن تعجل في يومين.

وله : أن يبيت في أي مكان من منى .

كما أن له : أن يبيت أول الليل بمنى ، وآخره بمكة ، أو يبيت أول الليل بمكة وآخره بمنى .

ويلاحظ : أن هذا المبيت يسقط عن أصحاب الأعذار ، ولا شئ عليهم لعدم هذا المبيت .

وأما غير أصحاب الأعذار : فعليهم المبيت بمنى ، ومن لم يبت منهم بمنى فقد أساء ، ولا شئ عليه .

والإقامة بمنى ثلاثة أيام : الحادي عشر ، والثاني عشر ، والثالث عشر ، من ذي الحجة .

ولمن تعجل أن يبيت يومين فقط ، بشرط أن يرجع من منى إلى مكة قبل غروب شمس اليوم الثاني عشر بعد الرمي ، عند الجمهور.

وبذلك : تكون أعمال يوم النحر ، قد تمت كاملة ، بل أعمال يوم النحر، وأيام التشريق كذلك .

ولم يبق للحاج سوى شئ واحد ، وأخير .

وهو : طواف الوداع .

فإلى طواف الوداع .

*** * * ***

طواف الوداع

-

وهو آخر ما يفعله الحاج ـ غير المكي ـ عند انصرافه من مكة وقبل عودته إلى بلده .

عن ابن عمر رضى الله عنه " آخر النسك : الطواف بالبيت".

وبذلك : يكون الطواف بالبيت . . أول شئ يفعله الحاج ، وآخر شئ يفعله كذلك.

واتفق العلماء على أنه مشروع .

فعن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال : كان الناس ينصرفون في كل وجه ـ أي إلى كل جهة ـ فقال النبي صلى الله عليه وسلم" لا ينفر أحدكم حتى يكون آخر عهده في البيت " [رواه : مسلم ، وأبو داود].

غير أنه " رخص للحائض أن تنفر إذا حاضت" يعني : تسافر إلى بلدها دون أن تطوف طواف الوداع ، ولا شئ عليها .

فعن صفية أم المؤمنين ، رضى الله عنها : أنها حاضت ، فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم .

فقال : أحبستنا هي .. ؟

فقالوا : إنها قد أفاضت .

قال : فلا إذا . [رواه : البخاري ومسلم] .

والمعنى : أحابستنا حتى تطوف طواف الإفاضة ، الذي ركن من أركان الحج . . ؟ فلما علم صلى الله عليه وسلم أنها طافت طواف الإفاضة ، ولم يبق إلا طواف الوداع . . ، قال : فلا إذا يعني فلا عليها فيه شئ لو تركته بسبب حيضها .

واختلف العلماء في حكم من تركه بدون عذر.

فقال بعضهم : أنه واجب ، وعليه دم .

وقال بعضهم : إنه سنة ، لا يلزم تركه شئ.

هذا . .

ووقته : بعد أن يفرغ المرء ، وينتهي من جميع أعماله ، وشراء حاجياته ، وقضاء مصالحه ، ويريد السفر ، قام بطواف البيت "طواف الوداع" هذا .

فإذا طاف : سافر فورا ، دون أن يشتغل ببيع أو شراء ، أو خلافه ، إلا في الأمور الضرورية ، التي لا غنى عنها .

ويستحب للمودع . . أن يدعو بهذا المأثور عن ابن عباس رضى الله عنهما . . وهو :

" اللهم . . !! إني عبدك ، وابن عبدك ، وابن أمتك ، حملتني على ما سخرت لي من خلقك ، وسترتني في بلادك ، حتى بلغتني . بنعمتك . إلى بيتك ، وأعنتني على آداء نسكي . . فإن كنت قد رضيت عني : فازدد عني رضا ، وإلا . . فمن الآن : فارضني عني ، قبل أن تنأى عن بيتك داري ، فهذا أوان انصرافي . إن أذنت لي . غير مستبدل بك ولا ببيتك ، ولا راغب عنك ، ولا عن بيتك .

اللهم . .!! فاصحبني . . العافية في بدني ، والصحة في جسمي ، والعصمة في ديني ، وأحسن منقلبي ، وارزقني طاعتك ما أبقيتني ، واجمع لي بين خيري الدنيا والآخرة إنك على كل شئ قدير" .

فإن لم يكن حافظا لهذا الدعاء ، أو لم يتمكن من حفظه أو من كتابته ، ليدعو به : فليدع بما شاء من أي دعاء آخر ، ييسره الله تعالى له.

ختاما . .

وبهذا . . يكون الحج قد تم تماما .

وللحاج : أن يعود إلى بلده . . سالما ، آمنا ، غانما . بإذن الله تعالى . حجا مبرورا ، وسعيا مشكورا ، وذنبا مغفورا .

ولا عليه : إلا أن يحافظ على نعمة الغفران التي أنعم الله عليه بها . .

بحيث تظهر آثار هذه النعمة . بإذن الله تعالى . عليه ، في عقيدته ، وأخلاقه ، وعباداته ، ومعاملاته ، . حسب ما بيناه سابقا . بحيث يصدق عليه ..قوله تعالى:{ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين } [الأنعام:162].

❋ ❋ ❋ ❋

انتهى الكتاب بحمد الله تعالى